جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

أَنَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ودَلَالَاتُهَا

(مِنَ المَاهِيَّةِ إِلَى المَآلات: دِرَاسَةٌ تَفسِيرِيَّةٌ مَوضُوعِيَّةٌ)

الدكتورة
رَحْمَة أَحمَد عَبدُه آل أَحمَد
أُستَاذُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ القُرْآن المُسَاعِدُ بِكُلِيَّةِ العُلُومِ وَالآدَابِ بِمَحَايِلِ عَسِيرٍ - جَامِعَةَ المَلِكِ خَالِدٍ - المَمْلَكَة العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّة

أنَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ودَلَالَاتُهَا (منَ المَاهيةِ إِلَى المَآلات: دِرَاسَةٌ تَفسِيرِيَّةٌ مَوضُوعِيَّةٌ)

رحمة أحمد عبده آل أحمد

قِسمِ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ القُرآنِ المُسَاعِدُ بِكُليَّةِ العُلُومِ وَالآدَابِ بمَحَايلِ عَسِيرٍ، جَامِعَةُ المَلِكِ خَالدٍ، المملكة العَرَبيَّة السُّعُودِيَّة.

الإيميل: rabdoh@Kku.edu.sa

مُستخلص:

تَوَجَّهَتْ هذهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى دِراسَةِ مَفهومِ (أَنَا) ودَلَالَاتِهَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وكَانَ مِنَ الحَتمِ اللِّزَامِ أنْ تَبدأَ بِدَايتِها الطَّبَعيَّةَ مِنَ التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ وَالقِرَاءَاتِيِّ والبَلَاغِيِّ لمَفهومِ (أَنَا) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ فتَوقَّفَتْ أَمَامَ طَرَائقِ كِتَابتِها وبلَاغَتِها، ثُمَّ انتَقَلْتْ إِلَى دِرَاسَةِ عَلَائقِهَا بالذَّوَاتِ التي ارتأتْ تَقسيمَها إِلَى الذَّاتِ المُتَفرِّدَةِ العُلْيَا البَاقِيَةِ، ثُمّ الذَّوَاتِ النُّورَانِيَّةِ؛ فالنَّارِيَّةِ، فالبَشَرِيَّةِ.

وكَانَ مِنَ الأَحْرَى مَنْطِقيًّا وشَرْعيًّا أن تُفردَ "الذَّاتَ" النَّبَوِيَّةَ؛ بوَصفِها أَعْلَى الذَّوَاتِ البَشَرِيَّةِ، بمَا تَحْمِلُهُ مِن مُوجباتِ التَّبشِيرِ والإِنْذَارِ، ثُمَّ فَصلَّتِ القَولَ في الذَّواتِ البَشَرِيَّةِ؛ فَدَرَسَتِ (أَنَا) النّقيَّةَ والخَبيثَةَ، وعَلَاقَةَ (أَنَا) بالنَّفسِ البَشَرِيَّةِ؛ ورأَتْ قِسمتَها إِلَى النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، واللَّوَّامَةِ، والمُطْمَئِنَّةِ ... إلخ.

وقَدِ انتقلَتْ إِلَى دِرَاسَةِ دَلَالَاتِ (أَنَا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ عَلَى الإِخْبَارِ عَنِ النَّفْسِ، والعَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، والعِزَّةِ والثِّقَةِ، ولَكِنِّي فَصلّتُ القَولَ في الكِبْرِ خاصَّةً؛ فتنَاوَلتُ دَلَالَاتِهِ في اللُّغَةِ والاصطِلَاحِ، وأَنواعِهِ، ونتَائجِهِ، وبخَاصَّةٍ نَتِيجَةُ الكِبْرِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وإِنْكَارِ أُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى ورُبُوبيَّتِهِ، مِنَ التَّكذِيبِ بآيَاتِهِ، والاشتِرَاطِ عليهِ (ﷻ)، و كَذا نَتيجَةُ الكِبْرِ عَلَى الرُّسُلِ بِتَكْذِيبِ رِسَالَاتِهم والتَّشكيكِ فِيهَا، وطَرْدِ المُؤْمِنِينَ وَفِتْنَتِهِم، وخُتِمَتْ هذهِ النّتائجُ بنتائجِ الكِبْرِ عَلَى الخَلْقِ.

الكَلِمَاتُ المِفتَاحِيَّةُ: (أَنا)، الذّاتُ، النّفسُ، الكِبْرُ.

The ego in the Holy Qur'an and its Implications (From Essence to Consequences)

Rahma Ahmed Abdo al Ahmed

Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Arts and Sciences, Mahayel Asir, King Khalid University, Saudi Arabia.
E-mail: rabdoh@Kku.edu.sa

Abstract:

This study aimed to study the concept of the ego and its connotations in the Holy Qur'an, and it was inevitable that its natural beginning should begin with linguistic analysis and readers. Atti and Al-Balaghi explain the concept of "ego" in the Holy Qur'an; She stopped at the methods of her writing and eloquence, then moved on to studying her relationships with the entities that she decided to divide into the unique, supreme, and everlasting self, and then the luminous entities. ; Then fire, then humanity.

It would have been more logical and legitimate to single out the prophetic "self." As the highest human entity,

With the responsibilities of preaching and warning it carries, then it elaborated on human beings. So I studied the pure and evil ego, and the relationship of the ego to the human soul. She saw its division into the soul that indicates evil, the blamer, the reassuring soul...etc.

She moved on to study the connotations of the ego in the Holy Qur'an. In terms of indicating information about oneself, greatness, pride, honor and confidence, but I have detailed the saying in particular about pride; I discussed its implications in language, terminology, and its types.

Keywords: Ego, Self, Soul, Arrogance.

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، أَنْزَلَ كِتَابَهُ المُبِينَ هِدَايَةً للأَوَّلِينَ والآخَرِينَ؛ ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾.(سُوْرَة الجن) فلَا يَمْلِكُ مَن كانَ لهُ لُبٌّ إِلَّا أنْ يُؤمِنَ بهِ، ويُذْعِنَ لِمَا فيهِ مِن أَنْوَارِ الهِدَايَةِ إِلى صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ؛ والصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَى مَنْ كَانَ القُرْآنُ مُعْجِزَتَهُ الخَالِدَةَ مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ اللهِ، صلَوَاتُ ربِّي وتَسْلِيمَاتُهُ عَليهِ، أَكْرَمَهُ رَبُّهُ بالقُرْآنِ؛ لِتَتَدبَّرَ أُمَّتُهُ آيَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾. (الأحقاف).

- يظَلُّ القُرْآنُ الكَرِيم خَالدًا شَامِخًا عبرَ العُصورِ، يَمُدُّ تَحدِّيهِ إلى العالمينَ أبدَ الدَّهْرِ، لا تَنْضوِي أَفكارُهُ، ولا يَنضبُ عطَاؤُهُ، ومَهْمَا حاولَ أعداءُ الإِسْلَامِ أَنْ يَنالُوا منهُ فلنْ يَسْتَطِيعَ أن ينالَ منهُ حاقِدٌ أو أثيمٌ، ويؤولُ حالهُ:

كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يومًا ليُوهِنَها ** فَلَم يُضِرْها وَأَوهَى قَرنهُ الوَعِلُ(١)

وَبَعْدُ:

فَكُلُّ كِتَابٍ يَجِفُّ نَبْعُهُ، ويَقِلُّ عَطَاؤُهُ بكَثْرَةِ البَحْثِ فيهِ إِلَّا القُرْآنُ الكَرِيمُ؛ فإِنَّهُ لا يَخلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ؛ كَمَا جَاءَ في حَدِيثِ أَبِي الأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدبَةُ اللهِ، فَاقبلُوا مِن مَأْدُبتهِ مَا اِسْتَطَعْتمْ، إنَّ هَذَا القُرْآن حَبْلُ اللهِ، والنُّورُ المُبِينُ، والشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ،

(١) البيت للأعشى في ديوانه، ١١١، و العينيّ، المقاصد النَّحويّة، ٥٢٩/٣، وخالد الأزهريّ، شرح التصريح ٦٦/٢، وبلا نسبة عند أبي الفرج، الأغاني، ١٤٩/٩)، وابن هشام، أوضح المسالك، ٢١٨/٣.

ونَجَاةٌ لمَنْ تَبعَهُ، لا يَزِيغُ فَيُستَعْتَبَ، ولا يُعْوَجُّ فيَقُومَ، ولا تَنقضِي عَجَائِبُهُ، ولا يَخلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اِتلُوهُ؛ فإنَّ اللهَ يَأْجُرْكُم عَلَى تِلَاوَتِه؛ كُلُّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، أَمَّا إنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، ولَكِنْ، أَلِفٌ، ولَامٌ، وميمٌ"(١).

وَاِستِجَابَةً لِهَذَا التَّوْجِيهِ النَّبَوِيِّ الحَكِيم، ولِلأَمْرِ الإِلَهِيِّ بِتَدبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، جَاءَ هَذَا البَحْثُ؛ عنْ (أنا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ.

وَهُوَ بَحْثٌ يَستَمِدُّ أَهَمِّيَّتَهُ مِن اِتِّصَالِهِ بالقُرْآنِ الكَرِيم، ومُحَاولَةِ التَّدبُّرِ فِي آيَاتهِ، وَعَظِيم أسرارهِ، وجَوَاهِر بَلَاغَتِهِ وفَصَاحَتِهِ، بالإِضَافَةِ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ التَّأْكِيدِ عَلَى إِعْجَازِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وخُلُودِهِ؛ فَإِنَّهُ، كَمَا تَقُولُ بِنتُ الشَّاطِئِ: "مِن إِعْجَازِ القُرْآنِ أَنْ يَظَلَّ مَشغلَةَ الدَّارِسِينَ والعُلَمَاءِ جِيْلًا بَعْدَ جِيلٍ، ثُمَّ يَبقَى أَبَدًا رَحْبَ المَدَى، سَخِيَّ المَوْرِدِ، كُلَّمَا حَسِبَ جِيلٌ أَنَّهُ بَلَغَ مِنهُ الغايَةَ، اِمتَدَّ الأُفُقُ بَعِيدًا وراءَ كلِّ مَطْمَحٍ، عَالِيًا يَفُوقُ طَاقَةَ الدَّارِسِينَ"(٢).

الدِّراسات السابقة:

- ثمةَ دراساتٌ مسّتْ فِكرةَ مدلولات أنا في القُرْآنِ الكَرِيمِ، ولَكِنْ نَدرَتِ الدّرَاسَاتُ التي تستقلُّ بهذه الفِكرةَ، فإمّا تخلصُ لها في القرآنِ الكَرِيمِ فحسبُ، ولكنّها تَدرسُها من ناحيةٍ لُغَويّةً صوتيَّةً، وإمّا تُضيفُ إليها البحثَ فِي السُّنّة الشّريفةِ؛ مِمَّا يَجعلُ القَضيةَ واسِعَةً وغائِمةً؛ فمِنْ ذلكَ:

(١) أَخرجَهُ ابنُ نصر (المُخْتَصَر)، في قيامِ اللَّيل، ٧٠، ومن طريقهِ الحَاكِم، المُسْتَدْرَك، ١/٥٥٥، من طريق إبْرَاهِيم الهجْرِيّ عن أبي الأحوص عن ابن مَسْعُود مَرفوعًا. وقال الحَاكِمُ: صَحيحُ الإِسْنَادِ، وتعقَّبه الذهبي: فقالَ إبْرَاهيم ضَعِيفٌ. ووردَ الحَدِيثُ مَوقُوفًا عن ابنِ مَسْعُود وهُو الأَصحُّ. أخرجهُ مُسددٌ كَمَا في المَطَالِبِ العاليةِ رقم: ٣٠٧٩، وعَبْد اللهِ بن أحمَد في زَوَائِد الزُّهْد رقم: ٨٥٤، والطَّبَرَانِيّ، المُعْجَم الكبير رقم: ٨٦٦٦ من طريقِ شُعبة عن أبي الأحوص عن ابن مَسْعُود مَوقُوفًا. وسندهُ صحيحٌ.

(٢) بنتُ الشَّاطِئ، ١٧.

– **مدلولاتُ أنَا في القُرْآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، للبَاحِثِ:** عبدالرَّحمن قايد عبدالرَّحمنِ الفَقِيه، الجمهوريَّة اليمنيَّة، مِجلَّة الجَامعةِ الوطنيَّةِ، الجَامعة الوطنيَّة، عدد٤، ديسمبر ٢٠١٧م، وانصَبَّ هَمُّ الباحِثِ عَلَى الحُكْمِ الشَّرعيّ في التّلفُّظِ بها، مدْحًا وذَمًّا، وأنَّ الله (ﷻ) قالَهَا في مَعرِضِ التَّوحيدِ وإخلاصِ العَملِ، كمَا جاءتْ مَمدُوحَةً في كُلِّ أَحَادِيثِ النّبيّ (ﷺ) إلَّا موضعًا واحدًا فيه كَراهةً.

– **ضَمير المتكلّم" أنا "في الرُّبع الثَّاني من القرآنِ الكريمِ:** دراسةٌ صَوتيَّةٌ دلاليَّةٌ، إبراهيم طبشيّ، الجزائر، مركز جيل البحثِ العلمِيّ، مِجلَّة جيل الدِّراساتِ الأدبيَّةِ واللُّغويّةِ، ٢٠١٩م.

وَقَدْ قسَّمتُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ مُقَدِّمَةً وأَربعةَ مَحَاورَ وخَاتِمَةً؛ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

– تَشْتَمِلُ **المُقَدِّمَةُ** التّعريفَ بمَوضُوعِ البَحثِ، وأَسْبَابَ اِختِيَارِهِ، وأَهَمِّيَّتَهُ.

– وخُصَّ **المِحْوَرُ الأَوَّلُ:** بالتَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ، والقِرَاءَاتِيِّ، والبَلَاغِيِّ لِلْأَنَا في القُرْآنِ الكَرِيمِ، ويَشْتَمِلُ ثلاثَ نقاطٍ فرعيَّة؛ هيَ كَمَا يأتِي:

– التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ لِلْأَنَا، والقِرَاءَاتُ الوَارِدَة فِيهَا، وبَلَاغَتُها فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ.

– **المِحْوَرُ الثَّانِي:** عَلَاقَةُ (أَنَا) بالذَّاتِ؛ واختصّ بالتَّحْلِيلِ الدَّلاليِّ لِلْأَنَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ ويَشْتَمِلُ نقطتين هما: عَلَاقَةُ (أَنَا) بالذَّاتِ؛ وقَسَّمْتُ الذَّواتِ هَكَذَا: " العُلْيَا البَاقِيَةَ، وَالنُّورَانِيَّةَ، وَالنَّارِيَّةَ، والبَشَرِيَّةَ".

– **المِحْورُ الثَّالثُ:** عَلَاقَةُ (أَنَا) بالنَّفْسِ؛ وقَسَّمْتُ الأَنْفُسَ هَكَذَا: " الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، وَاللَّوَّامَةَ، وَالمُطْمَئِنَّةَ.

– **المِحْوَرُ الرَّابِعُ:** دَلَالَاتُ (أَنَا) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ وقَسَّمْتُ دَلَالَاتِ الأَنَوَاتِ هَكَذَا: " دَلَالَةُ أَنَا عَلَى: (الإِخبَارِ عَنِ النَّفْسِ، والعَظَمَةِ، وَالعِزَّة والثِّقَةِ، وَالكِبْرِ).

خَاتِمَةٌ: تَشْتَمِلُ أَهَمَّ نَتَائِجِ الدِّرَاسَةِ.

١- التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ وَالقِراءاتِيُّ والبلَاغِيُّ لِـ(أَنَا) فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

١/١ – التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ لِــــ(أَنَا) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ:

أَنَا: ضَمِيرُ رَفْعٍ مُنْفَصِلٌ للمُتَكَلِّمِ أَوِ المُتَكَلِمَةِ، يُثَنَّى، ويُجْمَعُ، عَلَى غَيرِ لَفظِــهِ؛ فَيُقَالُ: "نَحْنُ"، ويُبْنَى عَلَى الفَتْحِ فَرْقًا بينَهُ وَبينَ "أَنْ" الحَرفِ النَّاصبِ للمُضَارِعِ، وَالأَلِفُ لِبَيَانِ الحَرَكَةِ في الوَقْفِ[1]، وفِيهَا خَمْسُ لُغَاتٍ: أَنَ، وأَنَــا، وآن، وأَنَــهْ؛ فَيَجُوزُ الهاءُ في "أَنَهْ" بدلًا مِنَ الأَلِف؛ كــالتِي فِي ﴿كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ (الحَاقَّة). وَالأَلِفُ في (أَنَا) للسُّــكُوتِ، ويَجُــوزُ حَــذْفُها، وإِثْبَاتُهــا أَفْضَــلُ[2]، والاسْتِعْمَالُ القُرْآنِيُّ يُؤَكِّدُ أَنَّهَا إِلْحَاقَها أَصْلٌ؛ لِكَونِهَا ضَمِيرًا مُنْفصِلًا، مَــا عَــدَا قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ (الكَهْفِ)؛ فالأَصْلُ "لَكِــنَّ أَنَا" [3]، ويَأْتِي ذَلِكَ في مَوضِعِهِ.

وأَنَا ضَمِيرُ رَفْعٍ؛ كَمَا فِي أَكْثرِ الآيَــاتِ الكَريمــاتِ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾، ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ٢٥٨﴾ (البَقَرة) ...إلخ، وقَدْ يُستعملُ غيرَ مَرْفُوعٍ، في نيَابَتِهِ عَنْ ضَمِيرِ الجَرِّ، أَوِ النَّصْبِ فِي أَسَالِيبَ مَسْمُوعَةٍ؛ فَمِنْ نِيَابتِهِ عنْ ضَمِيرِ الجَــرِّ قَوْلُهُم: "ما أَنَا كَأَنْتَ، ولَا أَنْتَ كأَنَا"، ولم يردْ مثْلُهُ في القُرْآنِ، كَمَا يَنُــوبُ عَــنْ ضَمِيرَيِ النَّصْبِ أَوِ الجَرِّ تَوكِيدًا؛ كَقَولِكَ: "رأَيتَنِي أَنَا"، أَوْ "مررْتَ بِــي (أَنَــا)"، وَهُوَ اِسْتِعْمَالٌ قِيَاسِيٌّ؛ لِذَا ورَدَ في القُرْآنِ تَأْكِيدًا لِضَمِيرِ النَّصْبِ فِي عِدَّةِ آيَــاتٍ؛ مِثْــلَ: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ (الحجــر)، و: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ (يوسُــــفَ) و: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ

(١) الزَّبيديُّ، ٢٠٨/٣٤، الفيروزآباديّ، ١٥٩٦/١، الكفَويّ، ٩١٣/١، مَجْمَعُ اللُّغَةِ بالقــاهرةِ، ٢٨/١.

(٢) يُرَاجَعُ، ابن منظور، ٢٨/١٣.

(٣) يُرَاجَعُ، العُكبريّ، ٧٨٤/٢.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ (طـــــــــه)، وَ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (القَصص)، ...إلخ.

وَيَجُوزُ في هَذِهِ الآيَاتِ ومَا جرَى مَجْرَاهَا أَنَّ "أَنَا" تَوكِيدٌ نِيَابَةً عَنْ ضَمِيرِ النَّصْبِ؛ كَما يَجُوزُ إِبقَاؤُهُ مَرفُوعًا عَلَى الابتِدَاءِ، وَهُوَ وخَبَرُهُ خَبَرٌ لِلنَّاسِخِ، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرَ فَصْلٍ، وَحِينَئِذٍ قدْ يَخْرجُ مِنَ الاسمِيَّةِ إِلَى الحَرْفِيَّةِ؛ تَبعًا لِمَنْ يَعدُّون ضَمِيرَ الفَصْلِ حرفًا، لا اسمًا؛ كَمَا في تَمْثِيلِهِمْ بِـــ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، و﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائـــدة)، و﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (القصـــص)، ومَـــا أَشْـــبَهَ؛ فَـــذَهَبَ البَصْرِيُّونَ إِلَى كَونِهَا مُضْمَرَاتٍ، وذَهَبَ قَومٌ أَنَّها حُرُوفٌ، جَاءَتْ لمَعْنَـــى فِـــي غَيرِها، وَهُوَ الفَصْلُ بينَ الخَبَرِ، وَالتَّابِعِ، كابنِ عُصْفُورٍ وكثيرينَ غَيرِهِ، وعَلَـــى هَذا اِختلفَ القَائِلُونَ بِاسمِيّتِها عَلَى مَحلِّها مِنَ الإِعْرَابِ؛ فَذَهَبَ البَصْرِيُّونَ أَنْ لَـــا مَحلَّ لهَا، وَالكِسَائِيُّ والفَرَّاءُ إِلَى أَنَّ لهَا مَحلًّا؛ فَمَحَلُّهَا مَحَلُّ مَـــا بَعـــدَها، أَوْ مـــا قَبْلَها[1]، وَيَمِيلُ البَحْثُ، هُنَا، إِلَى رأيِ البَصْرِيِّينَ؛ فيَرَى أَنَّ "أَنَـــا" فـــي القُـــرْآنِ الكَرِيمِ اِسمٌ لا حَرفٌ.

(١) **ضَمِير الفَصل:** هوَ الضَّمِيرُ الذي يقعُ بينَ المُبْتَدَإِ والخبرِ، أو شبههما مِمَّا كـــانَ أَصـــلهُ مُبْتَدَأ وخبرًا، ثمَّ تغير بدُخُول النَّاسخِ؛ إذا كانا مَعرفتين. وفي هَذَا يقـــولُ الزّمَخْشَـــرِيّ: "ضَمِير الفصلِ يتوسَّط بين المُبْتَدَأ وخبرهِ قبل دُخُولِ العوامِلِ اللَّفْظِيَّـــةِ وبعـــدهِ إذا كـــانَ الخبرُ معرفةً أو مُضَارِعًا لهُ في اِمْتِنَاعِ دُخُولِ حرفِ التَّعْرِيفِ عليهِ كأفعلَ مِن كذا، أحَد الضَّمَائِرِ المُنْفَصِلةِ المَرْفُوعَة ليؤذنَ من أوَّلِ أَمرهِ بأَنَّهُ خَبرٌ لا نَعتٌ، وليفيد ضَربًا مـــن التَّوكِيد، وتسميه البَصْرِيُّونَ: فَصلًا، والكوفيُّون عِمادًا". – يُرَاجَعُ، الزّمَخْشَرِيّ، ١٧٢.

٢/١- القِرَاءَاتُ الوَارِدَةُ في "أَنَا" فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ:

لَا خِلَافَ بَينَ القُرَّاءِ في إِثْبَاتِ "أَنَا" فِي الوَقْفِ، و يُسقِطُهَا جُمْهُورُهُم في الوَصْلِ، إِلَّا نَافِعًا وابنَ أَبِي أُوَيسٍ؛ يُثبِتَانِهَا إِذَا لَقِيتْها هَمْزَةٌ مَا عَدَا: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٨)؛ لِذَا رَأَى القُرْطُبِيُّ عندَ تَفْسِيرِهِ ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، أَنَّ أَنَا۠ أُحۡيِۦ بِطَرحِ الأَلِفِ بَعدَ النُّونِ فِي الوَصْلِ[١]، وأَهْلَ المدينَةِ عَلَى إِثْبَاتِ الأَلِفِ والمدِّ وَصلًا إِذَا تَلَتْها أَلِفٌ مَفْتُوحَةٌ، أَوْ مَضمُومَةٌ[٢]، ونقلَ اِبنُ زَنْجَلَةَ: قِرَاءَةَ نَافِعٍ بِإِثْبَاتِ الأَلِفِ وَصلًا؛ فَهِيَ بمَنْزِلَةِ هَاءِ الوَقْفِ[٣]؛ لِذا قَرَأَهَا جُمْهُورُ القُرَّاءِ وَصلًا إِلَّا نَافِعًا؛ كما تَلْحَقُ الهاءُ أَحْيَانًا فَإِذَا اتَّصلَتْ بشَيءٍ سَقَطَتِ الهاءُ فكذَا الأَلِفُ[٤]، ويُحتجُّ لإسقاطِها وَصلًا بأنَّ النُّحَاةَ ذَكَرُوا أنَّ ضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ (أَنَ)، وإِنَّما جيء بِالأَلِفِ لبَيَان الحَرَكَة وَقْفًا كَالهَاءِ.

وقيل: إِنَّ في(أَنَا) **لُغتَين: الأُولَى:** لُغَة تَمِيمٍ، بِإِثْبَاتِ أَلفِهِ وَصلًا ووَقْفًا، **وَالثَّانِيَةُ:** إِثْبَاتُها وَقْفًا وحذْفُها وَصلًا[٥]، وأَمَّا ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ (الكهف: ٣٨)؛ فَالأَصلُ، كَمَا تقَدَّمَ أَنَّ حَرَكَةَ الهَمْزَةِ أُلْقِيَتْ عَلَى النُّونِ، وَقِيلَ: حُذِفَت، وأُدْغِمَتِ النُّونان[٦].

وَرُوِيَ عن الكِسَائِيّ "لَكِنَّ هُو اللهُ" بمَعْنَى لكنَّ الأَمرَ هُوَ اللهُ ربِّي، فأُضْمِرَ اِسمُها فيهَا. وقرأَ البَاقُونَ" لكِنَّا" بإِثْبَاتِ الأَلِفِ. قالَ الكِسَائِيُّ: فيهِ تَقْدِيمٌ وتَأْخِيرٌ،

(١) يُرَاجَعُ، القُرطُبيّ، ٢٨٧/٣.

(٢) يُرَاجَعُ، البَغَوِيّ، ٣١٦/١.

(٣) يُرَاجَعُ، ابن زَنَجلةَ، ١٤٢.

(٤) يُرَاجَعُ، ابن عَطِيَّةَ، ٣٤٦/١.

(٥) ابنُ عادلٍ الحَنْبَلِيّ، ٨٦٠/١.

(٦) يُرَاجَعُ، ابنُ الأَنْبَارِيّ، ٧٨٤/٢.

تقديرهُ: لكِنَّ اللهُ هُوَ ربِّي أنَا، فَحُذِفَتِ الهَمْزَةُ للخفَّةِ بِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ، وأُدغِمَتِ النُّونَانِ، وحُذِفَت ألفُ "أنَا" وَصلًا، وأُثبِتَتْ وَقْفًا[1]، هذَا هُوَ مُجْمَلُ آرَاءِ اللُّغويّينَ والقُرَّاءِ والمُفَسِّرينَ في أَلفِ "أَنَا" بينَ الإثباتِ والحَذْفِ.

١/٣- بَلَاغَةُ (أَنَا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ:

القُرْآنُ مُعْجِزةُ الإسْلَامِ الكُبْرَى؛ إِذْ لَمْ يَبْلغْ كِتَابٌ مَا بَلَغَهُ مِن رَوعَةِ البَيَانِ، وَمَسِّ المَشَاعِرِ، وأَسْرِ القُلُوب[2]؛ فلمْ يَعْرِفِ العَرَبُ، أَوْ غَيرُهم نَصًّا يَرتَقِي إِلَى فَصَاحَتِهِ وبَيَانِهِ؛ مِمَّا أَعْجزَ أَساطينَ البَلَاغَةِ عَنِ الإِتْيَانِ بشَيءٍ، يُضَارِعُهُ بَلَاغَةً وجَمَالًا وسُموًّا[3]؛ فغدَا النَّمُوذَجَ الأَعْلَى للتَّعْبِيرِ الرَّاقِي تَركِيبًا وبَلَاغَةً، وَمَعِينًا لا يَنضبُ[4]؛ وهَذَا مَا سَنَمثِّلُ لهُ بِبَلَاغَةِ (أَنَا) فيهِ؛ عَلَى ما يَتَّضِحُ فِي النّمَاذِجِ الآتيَةِ:

(أ) مثال قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ (النَّحل: ٢). يبْدَأُ سِيَاقُ الآيةِ بضَمِيرِ الغَائِبِ فِي﴿ يُنَزِّلُ ﴾، ﴿ أَمْرِهِۦ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: {لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠} بضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ؛ حِكَايَةً عَلَى المَعْنَى دونَ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ في النِّسْبَةِ، وقد رَأَى أَبُو حَيَّان أَنَّها لَو جَاءَتْ عَلَى اللَّفْظِ لكَانَتْ {لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ اللهُ}، وكلَاهما سَائِغٌ، وحِكَايَةُ المَعْنَى أَبلَغُ؛ إِذْ يُنْسَبُ الحُكْمُ فيهَا إِلَى ضَمِيرِ التَّكَلُّمِ المُنَزّل المَلَائِكَةَ[5]، وفي الآيةِ تَعظِيمٌ للخَالِقِ (ﷻ) وأَمرٌ بِعِبَادَتِهِ والتَّخْوِيفِ مِنهُ، وإِنْكَارٌ عَلَى المُشْرِكينَ عِبَادَةَ الحَقِيرِ العَاجزِ، وتَركُ عِبَادَةِ الخَالِقِ القادرِ الأَوْلَى بِالعِبَادَةِ[6].

---

(١) يُرَاجَعُ، القُرطُبيّ، ١٠/٤٠٤-٤٠٥.

(٢) يُرَاجَعُ، شوقي ضيف، ٤٤.

(٣) يُرَاجَعُ، حُسين الحاج، ٤٦.

(٤) يُرَاجَعُ، مُحَمَّد علي عبد الواحد، ٣٤.

(٥) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٥/٤٦٠.

(٦) البَيْضَاوِيّ، ٣/٣٨٥، أَبُو حيَّان، ٥/٤٦٠.

(ب) وفِي الآيةِ الكَرِيمةِ: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ سُورَة (طه: ١٤) دَليلٌ عَلَى تَوْحِيدهِ وعبادتهِ (ﷻ)، وفي تَقْدِيمِ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ عَلَى الأَمرِ بالعِبَادَةِ/{فَٱعۡبُدۡنِي} وإِقَامَةِ الصَّلَاةِ/وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ دَليلٌ عَلَى أَنَّ عِلْمَ الأُصُولِ/التَّوْحِيد مُقَدَّمٌ عَلَى عِلمِ الفُرُوعِ؛ ومِنهُ العِبَادَةُ والصَّلَاةُ، كَمَا أَنَّ العِبَادَة لَزِمَتِ العَبْدَ لأُلُوهِيَّتِهِ (ﷻ) بمُوجِبِ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ فاللهُ هُوَ المُسْتَحِقُّ للعِبَادَةِ؛ لِذَا جَاءَتِ الفَاءُ ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ لتَرْتِيبِ المَأْمُورِ بهِ عَلَى ما قَبلَها، فيَكُونُ اِخْتِصَاصُ الأُلُوهِيَّةِ بهِ (ﷻ) مِن مُوجِباتِ تَخْصِيصِهِ بالعِبَادَةِ؛ وعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ تَقرِيرُ التَّوْحِيدِ مُنتَهَى العِلمِ، والأمرُ بالعِبَادَةِ كَمَالَ العَمَلِ(١).

(ج) جَاءَأَنَاْ في قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ ﴾(طه: ١٢) بعدَ قَولِهِ: {إِنِّيٓ} إعادةً لضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ؛ لتأكيدِ الدَّلَالَة عَلَى اللهِ، وتَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ بِهِ، وإماطَةِ الشُّبْهَةِ التي عَلَقَتْ بِهِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مُوسَى (عليه السلام) لمَّا نُودِيَ؛ قالَ: مَنِ المُتَكَلِّمُ؟ فَقَالَ اللهُ: أَنَا ربُّكَ؛ فوَسوسَ إِلَيهِ إبْلِيسُ: لَعَلَّكَ تَسْمَعُ كَلَامَ شَيْطَانٍ، فقَالَ: أَنَا عَرَفْتُ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ؛ لِأَنِّي أَسْمَعُهُ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ بِجَمِيعِ الأَعْضَاءِ(٢)، فقولُ اللهِ: "أَنَاْ" أَلقَى بِأَنْوَارِهِ عَلَيهِ وأَخْرجَهُ مِمَّا اعترَاهُ، وأزالَ الشُّبْهَةَ؛ فتأَكَّدَ أنَّ مُخَاطِبَهُ هُوَ اللهُ (سبحانه وتعالى)(٣)، وقِيلَ: إنَّ فِي هَذِهِ الآيةِ تكريرًا لضَمِيرِ المُتكَلِّمِ؛ لِتَوكِيدِ الدَّلَالَةِ، وتَحقيقِ المَعْرِفَةِ، وإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ(٤).

(د) جَاءَأَنَاْ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ (البقرة: ١٦٠) اِلتِفَاتًا إِلَى المُتَكَلِّمِ، قُصِدَ مِنهُ الافتنانُ في

---

(١) الرَّازِيّ، ٢٢/١٧، العمَادِيّ، ٦/٨، البَيْضَاوِيّ، ٤/٤٤.

(٢) العمَادِيّ، ٦/٧.

(٣) الرَّازِيّ، ٢٢/١٥، ابنُ كَثِيرٍ، ٣/١٤٤، ابنُ الجَوْزِيِّ، ٥/٢٧٣.

(٤) يُراجعُ، الرَّازِيّ، ٢٢/١٥، والعمَادِيُّ، ٦/٧ .

النَّظْمِ الكَرِيمِ؛ لأنَّ افتتانَ المُتَكَلِّمِ فِي الفُنُونِ أَحسَنُ مِن اِقْتِصَارِهِ في المقَامِ عَلَى فَنٍّ وَاحِدٍ(١).

(هـ) جَاءَ أَنَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ (الحجر) ضِمنَ أَلْفَاظٍ تدلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ (ﷻ) فِي رَحْمَتِهِ التي لا يُشَارِكُهُ فيها غَيرُهُ؛ فالياءُ فِي {عِبَادِيٓ وأَنِّيٓ} والضَّمِيرُ أَنَا كُلُّهَا ضَمَائِرُ عَائِدَةٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى، ثُمَّ: {ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} صِفَتَانِ مُتَعَلِّقتانِ بِهِ، فهَذِهِ خَمسةُ أَلْفَاظٍ دَالَّةٌ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ بِعِبادِهِ؛ لأَنَّهُ أَضافَ العبادَ إليهِ تَشْرِيفًا لهُم، وأَكَّدَ اسمَ "أنَّ" بِقَولِهِ: أَنَا، وأُدْخِلَتْ "أَلْ" عَلَى الصِّفَتَينِ اللَّتينِ جاءَتَا بِصيغَةِ المُبَالَغَةِ، ثمَّ بَدَأَ بِالصِّفَةِ السَّارَّةِ /الغُفْرَانِ، وأَتْبَعَها بِالصِّفَةِ التي نَشَأَتْ عَنهَا/ الرَّحْمَةِ(٢)، كَمَا جَاءَتِ الصِّفَتَانِ بَعدَ الضَّمَائِرِ إِيذَانًا بأَنَّهُمَا مِمَّا تَقْتَضِيهُما الذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ.

(و) خُتِمَتِ الآيَةُ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف) بـ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ مِمَّا يُثيرُ تَسَاؤُلًا: هل النِّذارةُ والبِشَارةُ الوَارِدَتَانِ في الآيَةِ لِلمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، أَمْ لَهُم ولِغَيرِهِمْ؟ والحَقُّ أَنَّ النَّبِيّ (ﷺ) بَشِيرٌ ونَذِيرٌ للفَرِيقينِ، فَذِكْرُ أَحَدِهِما يَدُلُّ عَلَى الآخَرِ كَمَا في الآيَةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ (النحل)(٣)؛ فَإِنْذَارُهُ (ﷺ) لِلْكَافِرِينَ مَعلومٌ أَنَّه لكُفرِهِم، أَمَّا إِنْذَارُهُ للمُؤْمِنِينَ: فلِأَنَّهُم مُنْتَفِعُونَ

(١) العمَادِيّ، ١٨٣/١، الأَلُوسِيُّ، ٢٨/٢، ابنُ الجَوْزِيِّ، ١١١/٨.
(٢) يُراجعُ، أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٤٤٥/٥.
(٣) الرَّازِيّ، ٦٩/١٥.

قَطْعًا بالنّذَارَةِ والبِشَارَةِ، وفي ذَلِكَ إِعْلَامٌ لِلْكَافِرِينَ أَنَّهُ منذرٌ للمُؤْمِنِينَ لا لَهُم فَقَطْ، وفيهِ تَرْغِيبٌ لَهُم في الإِيمَانِ، وتحذيرٌ لَهُمْ عَنِ الإِصرَارِ عَلَى الكُفرِ والعِصْيَانِ(١)، فَهِيَ صُورَةٌ باعثةٌ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الإِيمَانِ؛ إِذِ الأَصْلُ أَنَّ المُؤْمِنِينَ مُبشَّرونَ مُقِيمُونَ عَلَى الإِيمَانِ، يَدُلُّ عَلَيهِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾(الأحزاب: ٤٧)، وهُوَ ما حَدَا بالمُفَسِّرِينَ أن يَقُولُوا: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الأَنْعَام: ١٨٨) فقَوْلُهُ: "لِّقَوْمٍ" مُتَعَلّقٌ بالبَشِيرِ وَحْدَهُ" {وَبَشِيرٌ"}. والمُتَعَلّقُ بِـــ: "نَذِيرٌ" مَحْذُوفٌ؛ فَالمَعْنَى: إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ وبَشِيرٌ لقَومٍ يُؤمنُونَ(٢).

(١) يُراجعُ، العمَادِيّ، ٣٠٢/٣، البَيْضَاوِيّ، ٨١/٣.

(٢) يُراجعُ، العمَادِيّ، ٣٠٢/٣، البَيْضَاوِيّ، ٨١/٣، النّسَفِيُّ، ٥٠/٢.

٢- عَلَاقَةُ (أَنَا) بالذَّاتِ:

يَنْظُرُ اللُّغَوِيُّونَ إلى الضَّمَائِرِ عَلَى أنَّها بَدائِلُ لِلأَسْمَاءِ؛ ومِنْ ثَمَّ فَـ "أَنَا" عِنْدَهُمْ ضَمِيرٌ لِلمُتَكَلِّمِ، سمَّوْهُ: اسمًا لَهُ(١)؛ وهُوَ ما جعلَ النَّفْسِيِّينَ يربطونَ هَذا الاسمَ، فيُرادُ بِهِ عِنْدَهُمْ: الفردَ بذِاتِهِ المُرتبطِ بالنَّفْسِ(٢)، وَالذَّاتَ بوَصْفِهَا كَائنًا واعِيًا(٣)؛ فَتَصِيرُ "أَنَا" علَمًا عَلَى الذَّاتِ؛ أَيْ إنَّ الذَّاتَ هِيَ (أَنَا) مِن نَاحِيَةٍ، ومِن نَاحِيَةٍ أُخرَى يَعدُّ اللُّغَوِيُّونَ "أَنَا" مِنَ الضَّمَائِرِ؛ لأنَّها أَعْرَفُ المَعَارِفِ، وأَعْرَفُ الضَّمَائِرِ لِأَنَّهُ يَدُلّ عَلَى المُرَادِ بِنَفْسِهِ، وبمُشَاهَدَةِ مَدْلُولِهِ، وَبِعَدَمِ صَلَاحِيَّته لِغَيرِهِ؛ لِتَميُّزِ صُورَتِهِ(٤).

ومَعْنَى هَذَا: أنَّ الَّذي يخبَرُ عَنْ نَفْسِهِ بـ"أَنَا" يَكُونُ أَعرفَ بِها مِنْ غَيرِهِ، ويَكُونُ خَبِيرًا بِنَفْسِهِ، وكَاشِفًا لِذَاتِهِ، لِذَلِكَ فإنَّ عُلَمَاءَ النَّفْسِ تَابِعُونَ في تَعرِيفِ "الذَّاتِ" لأهلِ اللُّغَةِ، فالذَّاتُ تَعنِي عِنْدَهُمْ: الصُّورَةَ التِي يُعَرِّفُ الإِنْسَانُ نَفسَهُ بِها(٥) فَيَقُولُ: أَنَا" ويُترجِمُ عَنْ ذَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ أعرفُ بِهَا مِنْ غَيرِهِ؛ لِذَا تُعَدُّ هَذِهِ الذَّاتُ في ضَوْءِ عَلَاقَتِهَا بـ(أَنَا) اِنْعِكَاسًا لِصُورَةٍ كوَّنَها عَنْ نَفْسِهِ من خِلَالِ تَجَارِبِهِ وَرَسَائِلِ الآباءِ "أَنتَ" التي يُرسِلُونَها لأَبنَائِهم(٦)؛ فَكَأَنَّهُ حِينَمَا يَتَحدَّثُ بـ"أَنَا" مُسْتَقْبَلًا فَحَدِيثُهُ يَخْرُجُ مِنَ الصُّورَةِ التي تكوَّنتْ لَديهِ عِندَمَا قِيلَ لَهُ صَغِيرًا: أَنْتَ مُجتَهِدٌ، فَيَقُولُ مُسْتَقْبَلًا: أَنَا مُجتهدٌ.

---

(١) يُراجعُ، الزَّبِيدِيُّ، ٢٠٨/٣٤.

(٢) يُراجعُ، كون أيفور، ١٠، ١١، فاخر عاقل، ١٢٠.

(٣) أسعد رزوق، ١٣٨.

(٤) يُراجعُ، السُّيُوطِيُّ، همعُ الهَوامِعِ ٢٢١/١، ابنُ هشَامٍ، ٩٦/١.

(٥) يُراجعُ، أحمد زكي صالح، ١٨٣.

(٦) يُراجعُ، مصطفى أبو السعود، ٢٤.

وَيَتَّضِحُ بالنَّظَرِ إِلَى عَلَاقَةِ (أَنَا) بالذَّاتِ في القُرْآنِ أَنَّها دَلَّتْ عَلَى **أَربعِ ذَوَاتٍ**: هذهِ الذَّواتُ **الأَرْبَعُ** هِيَ: العُلْيَا البَاقِيَةُ، والنُّورانِيَّةُ، وَالنَّارِيَّةُ، والبَشَرِيَّةُ. ويُمْكِن بَيَانُ دَلَالَاتِ (أَنَا) عَلَى هَذِهِ الذَوَاتِ في القُرْآن عَلَى النَّحْو الآتي:

٢/١- الذَّاتُ العُلْيَا البَاقِيَةُ:

وَرَدَتْ دَلالَةُ أَنَا عَلَى الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ؛ كَمَا فِي ﴿**أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ**﴾ (النَّحل: ٢)، وَنَحوِهَا، ولا يُمْكِنُ الإِحَاطَةُ بِدَلَالَتِهَا (أَنَا) عَلَى الذَّات في هَذِهِ المَوَاضِعِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الكَمَالِ للهِ وحدَهُ؛ كمَا ذَهبَ الرَّازِيُّ: إِلَى أَنَّ الأَسْمَاءَ المُضْمَرةَ ثَلَاثَةٌ هِيَ: أَنَا، وأَنْتَ، وَهُوَ؛ وأعْلَاهَا "أَنَا"، ثُمَّ "أَنْتَ"، ثُمَّ "هُوَ"، ووَرَدَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ بِثَلَاثَتِها، ولكِنَّ قَوْلَهُ: {لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠} لا يَجُوزُ لِأَحَدٍ إِلَّا اللهَ}، ذِكْرًا أو حِكايَةً؛ لأَنَّهُ يَقتضي إِثْبَاتًا؛ فَلا يَلِيقُ إِلّا لهُ (ﷻ) لِكَمَالِهِ المُطْلَقِ المُتفرّدِ بِهِ؛ لعِلمِ كلّ أَحدٍ بذَاتِهِ عنْ غيرِهِ به، لاسيَّما اللهَ تَعَالَى؛ لِذَا فَقَوْلُهُ: {لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠، لا يَحْصلُ العلمُ بِكَمَالٍ إِلَّا للهِ[1].

ولِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ الإِحَاطَةُ بدَلَالَةِ {أَنَا۠} عَلَى الذَّاتِ العُلْيَا البَاقِيَةِ عَلَى الكَمَالِ المُطلقِ إِلَّا للهِ؛ فقَدْ تولَّى اللهُ تَعَالَى أَمْرَ التّعْرِيفِ بِـ(أَنَا) المُرَادِ بِهَا ذاتُهُ العُلْيَا؛ فأَخبَرَ عَنْها بِجميلِ الصِّفَاتِ، وعَظِيمها؛ كمَا يَتَّضِحُ فيمَا يَأْتِي مِنْ آيَاتٍ:

(أ) أَخبَر تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّه (ﷻ) التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة)، وإِخبارُهُ عَنْ أَنَا۠ المُرَادِ بهَا ذاتُهُ العُلْيَا بأَنَّه {ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اختِصَاصِهِ بِالصِّفَتَينِ دُونَ غَيرِهِ؛ فَمَنْ رَجَعَ إِليهِ عَطَفَ عَليهِ، وقبِلَ توبتَهُ، وٱلتَّوَّابُ المُبالِغِ في قبُولِ

(١) الرَّازِيّ، ١٢٣/١، القُرطُبيّ، ٦٧/١٠ .

التَّوبِ ونَشْرِ الرَّحْمَةِ، والتَّعْقيبُ بأنَّه ٱلرَّحِيمُ بَعدَ {ٱلتَّوَّابُ} للتَّنبيهِ عَلَى رَحمتهِ بقبولِ التّوبَةِ بعدَ التّفريطِ من المُكلَّفينَ مِن عِبادهِ[1].

(ب) أخبَر تَعالَى عَنْ نَفْسِهِ بأنَّهُ {ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩)؛ فَجاءَ الإخبارُ عَنْ أَنَا بالمغفرةِ والرَّحْمَةِ إيذَانًا بأنَّ هاتَينِ الصِّفَتَينِ مِمَّا تَقتَضِيهُما الذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ، ويَتَّضِحُ ذَلِكَ أكثرَ بمقارنَةِ الآيةِ بِمَا بعدَها ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٥٠)؛ إِذْ يَدُلُّ السِّيَاقُ في الآيتينِ عَلَى أنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ ذَاتَهُ بالغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ بِالقَصْرِ، ولمْ يأتِ القصْرُ مع التَّعذيبِ؛ فَلَمْ يقُلْ: وإنِّي أَنَا المُعذِّبُ المؤلِم؛ إيذانًا بأنَّ الغُفْرَانَ والرَّحْمَةَ ممَّا تَقتَضِيهُما الذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ في حينِ أنَّ العذابَ مُتَحقِّقٌ بِما يُوجِبُهُ مِنْ خَارِجَهَا مِنْ كُفْرَانِ العَبْدِ وجُحُودِهِ[2].

(ج) أَخبَر تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ بأنَّهُ {ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النمل: ٩)، وأَعقَبَ أَنَا في الآيَةِ لَفظُ الجَلَالةِ ليُناسِبَ التَّعَظِيمَ؛ لِمَا سَيُظهِرهُ عَلَى يدِ مُوسَى (عليه السلام) مِنْ مُعْجِزَاتٍ؛ فالمَعْنَى أَنَّ مُكَلِّمَكَ/أَنَا، وٱللَّهُ بَيَانٌ لـ {أَنَا}، و {ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} صِفتَانِ للتَّعْيينِ، وهَذَا تَمْهِيدٌ لِمَا أَرَادَ أَنْ يُظهِرهُ اللهُ مِنَ مُعْجِزَاتٍ عَلَى يدِ مُوسَى، والمَعْنَى: أَنَّني أَنَا القَويُّ القَادِرُ عَلَى مَا يُزِيلُ الأَوْهَامَ مِنَ أُمُورٍ عِظَامٍ؛ كَقَلْبِ العَصَا حَيَّةً، وكُلُّ مَا أَفعَلُهُ بِحِكْمَةٍ وتَدْبيرٍ[3]، فَأَنَا {ٱلْعَزِيزُ} الَّذي عَزَّ كُلَّ شَيءٍ، ٱلْحَكِيمُ في قَولِهِ وفِعْلِهِ[4].

---

(١) يُرَاجَعُ، القُرطبِيُّ، ٣٢٦/١، الرَّازِيّ، ١٥٠/٤، البَيْضَاوِيّ، ٤٣٤/١، العمَادِيّ، ١٨٣/١.

(٢) القُرطُبيّ، ٢٢٧/٧، الرَّازِيّ، ٢٢٨/١، العمَادِيّ، ٨٠/٥، الأَلُوسِيُّ، ٦١/١٤.

(٣) القُرطُبيّ، ١٥٦/١٣، الرَّازِيّ، ١٥٧/٢٤، البَيْضَاوِيّ، ٢٦٠/٤، العمَادِيّ، ٢٧٤/٦.

(٤) ابنُ كَثِيرٍ، ٣٥٨/٣ .

(د) أَخبَر تَعالَى عَنْ نِدائِــهِ مُوسَــى(عليه السلام): ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (القصص).

فَجَاءَتْ أَنَافي الآيةِ لِتزِيلَ الشَّكَّ عَنْ مُوسَــى (عليه السلام)؛ فَيُخْبِــرَهُ اللهُ أَنَّــهُ مَــنْ يُخَاطِبُهُ ويُكلِّمُهُ، المُتَنَزِّهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ مَخْلُوقَاتِــهِ فــي ذَاتِــهِ وصِــفَاتِهِ وأَقْوالِــهِ وَأَفْعالِهِ (سبحانه وتعالى)[1].

(هــ) أخبَر تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ بأَنّهُ عَدْلٌ في حُكْمِهِ وقَضَائِهِ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سُوْرَة ق: ٢٩)؛ فَأَعقبَ النَّفْيُبِــ "مَا" {أَنَا} فِي هَذِهِ الآيَــةِ لِيَــدُلَّ عَلَى أنَّ ذَاتَهُ (سبحانه وتعالى) تَقْتَضِي نَفْيَ تَعْذِيبِهِ عِبادَهُ دُونَ ذنْبٍ[2]، كما بَيَّنَتْ نَزاهتَهُ عنِ الظُّلْمِ بأَمرَينِ:

الأَوَّلُ: تَصْوِيرُهُ بِصُورَةٍ ما يَستَحِيلُ صُدُورُ الظُّلمِ عَنهُ. **والثَّانِي:** تَأْكِيدُ ذلــكَ بِصِيغَةِ المُبَالَغَةِ/ {بِظَلَّٰمٍ} لنَفيِ التَّعْذيبِ دُونَ ذِنْبٍ فــي مَعْــرِضِ المُبَالَغَــةِ فــي الظُّلْمِ[3].

(و) أَخبَر تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ {قَوِىٌّ عَزِيزٌ }﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢١)؛ فَجَاءَتْ أَنَاْ للتأكيد عَلَى أَنَّهُ ناصِرُ رُسُــلِهِ، ومُنجِــزُ وَعْدِهِ الذي كَتَبهُ بالغَلَبَةِ في اللَّوحِ بِالحُجَّةِ والحَرْبِ عَلَى السَّوَاءِ[4]، بَعْــدَ تَأْكِيــدِهِ

(١) القُرطُبيّ، ٢٨٣/١٣، ابنُ كَثِيرٍ، ٣٨٩/٣ .
(٢) القُرطُبيّ، ١٧/١٧، ابنُ كَثِيرٍ، ٢٢٧/٤، البَيْضَاوِيّ، ٢٣٠/٥.
(٣) القُرطُبيّ، ١٦/١٢، العمَادِيّ، ١٣٢/٨.
(٤) القُرطُبيّ، ٣٠٦/١٧، الأَلُوسِيُّ، ٣٤/٢٨، النّسَفِيُّ، ٢٢٨/٤ .

بِقَولِهِ: لَأَغۡلِبَنَّ للدّلَالَةِ علَى أنَّهُ ما دامَ قدْ قطعَ هَذَا الوَعْدَ، فَإِنَّهُ نَاصِرُ حِزْبِهِ؛ فالغَلَبَةُ قَدرٌ مُحكمٌ[1].

وَهَكَذَا تَولَّى اللهُ تَعَالَى، فِي هَذِي الآيَاتِ ونَحوِها تَعرِيفَ عِبَادِهِ بِذَاتِهِ العَلِيَّةِ، ومَا تُوصَفُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ والجَلَالِ؛ إذْ وَصَفَ ذَاتَهُ المُعبّرَ عَنْها بِعَظِيمِ الصِّفَاتِ وأَكْمَلِها؛ ممَّا يَجِبُ لهُ وَحْدَهُ؛ فَأَعْقَبَ أَنَاوَصْفُ الذَّاتِ الرَّبَّانِيَّةِ بأَنَّهُ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، الغَفُورُ، العَزِيزُ الحَكِيمُ، رَبُّ العَالَمِينَ، العَدْلُ، القَوِيُّ..إلَخ.

وفي كُلِّ ما سَبقَ تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ بِمَا يجِبُ لِذَاتِهِ مِنْ صِفَاتِ الجَمَالِ والجَلَالِ والكَمَالِ والعَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ؛ كَمَا أَبَانَتْ عنهُ الآيَاتُ التي عَرضْتُ لَهَا.

٢/٢- الذَّاتُ النُّورانِيَّةُ: الذَّاتُ النُّورانِيَّةُ هِيَ ذَاتُ المَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّهُم خُلِقُوا مِنْ نُورٍ، وقدْ وَرَدَتْ {أَنَا} للدّلَالَةِ عَلَى هَذِهِ الذَّاتِ في آيَةٍ وَاحِدَةٍ، عَن جِبرِيلَ (عليه السلام)؛ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم: ١٩)؛ فَقدْ جَاءَتْ {أَنَا} في الآيَةِ إِعْلَانًا عَنْ ذَاتِ جِبريلَ (عليه السلام) لِطَمْأَنَةِ مَرْيَمَ، (عليها السلام)، وتَهْدِئَةً مِنَ الخَوفِ ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (مريم: ١٨) فَطَمْأَنَهَا جِبْرِيل(عليه السلام): ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم: ١٩)، و أَفَادَ جَوَابُ جِبْرِيلَ أنَّ ذاتَهُ نُورانِيَّةٌ مَلَائكِيَّةٌ، ينتفِي مَعَهُا الشُّرُورُ، وكذَلِكَ كُلُّ المَلَائكَةِ؛ فَهُوَ رَسُولُ ربِّها الَّذي اِستَعَاذَتْ بهِ[2]، كَمَا أَنَّ مِن صِفَاتهِ أَنَّهُ قَوِيٌّ شَديدٌ، يُكلِّفُهُ اللهُ بِالمُعْجِزَاتِ ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ (النجم: ٥)؛ كَالمُعْجِزةِ التي تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ سَبَبٌ في أَنْ تُوهَبَ مَرْيَمُ، (عليها السلام)، هَذَا الغُلَامُ بِالنَّفْخِ في الدِّرْعِ[3].

---

(١) ابنُ الجَوْزِيِّ، ١٩٨/٨، ابنُ كَثِيرٍ، ٣٣٠/٤.

(٢) العمَادِيّ، ٢٦٠/٥، البَيْضَاوِيّ، ٩/٤.

(٣) ابن زَمَنِين، ٤٠١/١، الرازيُّ، ٥٢١/٢١، الأُلُوسِيُّ، ٧٧/١٦.

فـ {أَنَا} في الآيةِ مَلَائِكِيَّةٌ نُورانِيَّةٌ تُفِيدُ أَنَّ ذَاتَهُ تَقْتَضِي وَصفَهُ بفِعلِ الخَيرِ، وأنَّهُ لا يُرْهِبُ أَحَدًا، ولا يُنتظرُ منهُ شرٌّ، وتَجرِي بسَبَبِهِ خوارقُ العادَاتِ.

٣/٢- الذَّاتُ النَّارِيَّةُ:

الذَّاتُ النَّارِيَّةُ هِيَ ذَاتُ الجِنِّ؛ لِأَنَّهُم خُلِقُوا مِنَ النَّارِ، وقَدْ وَرَدَتْ {أَنَا} في القُرْآنِ للدَّلَالَةِ عَلَى هَذِهِ الذَّاتِ في عِدَّةِ آيَاتٍ، مِنهَا ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩- ٤٠). والعِفْرِيتُ هُوَ الخَبِيثُ المُتمَرِّدُ، أَي إِنَّهُ ماردٌ مِن مَردةِ الجِنِّ وأَقوِيَائِهِم؛ لِذَا قَالَ لِسُلَيمَانَ (عليه السلام): {أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ}، كنَايَةً عَنِ السُّرْعَةِ الفائقَةِ، وأَنَا قَوِيٌّ عَلَى حمْلِهِ، أَمِينٌ عَلَى ما فِيهِ، فَلَا أُخْفِي مِنْهُ شَيئًا، والجِنُّ عالَمٌ خفِيٌّ، يَسْتَطِيعُ أنْ يَأْتِي مِنَ الأَعْمالِ فوقَ ما يأْتِيهِ البَشَرُ.

وقَدْ أكَّدَ العِفْرِيتُ قُوَّتَهُ وأَمَانَتَهُ بِثَلَاثِ أَدوَاتٍ؛ لِيُؤَكِّدَ إِصرَارَهُ عَلَى القِيامِ بالمَهمَّةِ.

وفِي ذَلكَ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَنْ يَتقَدَّمَ مَنْ يرَى فِي نَفْسِهِ كَفَاءَةً؛ لِتُفِيدَ الأُمَّةُ مِن كَفاءَتِهِ، وقدْ يتَوجَّبُ ذَلِكَ لئَلَّا تُهْدَرَ طَاقاتٌ كامِنةٌ، وتُحْجَبَ كَفَاءَاتٌ عَالِيَةٌ لاسَبِيلَ لِإِعْلَانِهَا، إِلَّا مِنْ صَاحِبِهَا دُونَ حَيَاءٍ، عَلَى أن يَعرِضَ في عِزَّةٍ؛ لِذَا طَلبَ يُوسُفُ (عليه السلام) من مَلِكِ مِصْرِ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خزائنِ مَملكتهِ لِكَفاءَتِهِ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسُف: ٥٥)، ويَأْتِي تفصيلُ ذَلكَ في دَلَالَةِ {أَنَا} عَلَى العِزَّةِ والثِّقَةِ.

وَيُؤَكِّدُهُ هَذَا أَنَّ سُلَيمَانَ (عليه السلام) لمْ يَرُدّ عَلَى العِفْرِيتِ جَوَابًا، عَلَّهُ يَجِدُ بينَ جُنْدِهِ أَكفأَ مِنهُ وأَسْرَعَ في إِحْضَارِ العَرْشِ، وَحِينَئِذٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

وقَدِ اختلَفَتْ أَقوَالُ المُفَسّرينَ فِيمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ، وَذَكَرُوا أَقْوَالًا، لَا دَلِيـــلَ عَلَيهَا، ولَيستِ الأَسْمَاءُ بمُهِمَّةٍ، إنَّمَا المُهِمُّ العِبْرةُ والعِظَةُ، والعِبْرَة، هُنَـــا، جَـــوازُ أنْ يُخْبِرَ الإِنْسَانُ بِقُدرَاتِهِ وإمكَانَاتِهِ التِي قدْ تَخْفَى عَلَى غَيـــرِهِ؛ بقَصْـــدِ إيصَـــالِ النَّفعِ، والنُّهُوضِ بالمَهَامّ لِتعْمِيرِ الأَرْضِ، وإِسعَادِ الخَلقِ؛ كَما سيأْتِي تَفْصِيلُهُ.

وَمِمَّا يَدْخُلُ في إِطَارِ الذَّاتِ النَّارِيَّةِ ذاتُ إِبْلِيسَ اللَّعِينُ، لَعَنهُ اللهُ، الذي عَبَّرَ عَنْ ذَاتِهِ بـــ"أَنَا" في غَيرِ آيَةٍ؛ كمَا فِي الآيةِ التِي مَقَامُهَا يـــــــومُ القِيَامَةِ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(إبْرَاهِيمَ: ٢٢)؛ فَثَمَّةَ مُحَاوَرَةٌ بينَ الشَّيْطَانِ وأَتبَاعِهِ مِنَ الإِنْسِ؛ لاشتِرَاكِهِم في الضَّلَالِ[١]، فتَظْهَرُ {أَنَا} الشَّيْطَانُ وذَاتُهُ عَلَى حَقِيقَتَيهِمَا مِنَ التَّخلِّي عنِ الأَتبَاعِ، وَعَدمِ إغَاثَةِ أَحدٍ ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ ﴾ فَالصَّارِخُ المُستغيثُ، والمُصْرِخُ المُغِيثُ[٢]، والمَعْنَى ما {أَنَا} بمُغيثِكُم، ولا أنتُم بمُغِيثِيّ [٣]؛ وبهَذَا تَتَجَلَّى ذاتُ اللَّعِينِ بِجُبْنِها، وتَكبُّرِها، واستِكبارِها وكُفرِها، وتَخَلِّيهَا والتَّزْيينِ والإِغواءِ.

وَهكَذَا جَاءَتِ في القُرْآنِ (أَنَا) المُعَبِّرَةُ عَنِ الذَّاتِ النَّارِيَّةِ مُتجسِّدةً في إِبْلِـــيسَ، مُحَمَّلَةً بِدَلالَاتِ الغُرُورِ المَذمُومِ والكِبرِ المَمقُوتِ؛ كَما يَأْتِي تفصيلهُ في دَلَالَةِ {أَنَا} عَلَى الكِبْرِ.

---

(١) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، البَحْرُ المُحِيطُ، ٤٠٨/٥.

(٢) القُرطُبيّ، ٣٥٧/٩، الرَّازِيّ، ٩٠/١٩، الأَلُوسِيُّ، ٢٨/١٢، السُّيُوطِيّ، المزهر ٣١٥/١.

(٣) ابنُ الجَوْزِيِّ، ٣٥٧/٤، القُرطُبيّ، ٣٥٧/٩، البَيْضَاوِيّ، ٣٤٥/٣.

٢/٤- الذَّاتُ البَشَرِيَّةُ:

ذَوَاتُ الأَنْبِيَاء والمُرْسَلِينَ هِيَ أهمُّ الذّوَاتِ البَشَرِيَّةِ التِي تُشَكِّلُ صُوَرًا مَعنَوِيَّةً، عَنْ طَرِيقِ (أَنَا) وَهِيَ أَعْلَى الذَّوَاتِ البَشَرِيَّةِ، ولَقَدْ تَعَرَّضَ القُرْآنُ لِذِكْرِهِم لِلتَّرْغِيبِ في اِتِّبَاعِهِم والتَّعَلُّمِ مِنْهُم، كَمَا أَنَّ أَهَمَّ مَا تَعَرَّضَ لَهُ القُرْآنُ في الكَشْفِ عنِ الذَّاتِ البَشَرِيَّةِ ما ذُكِرَ عَنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَاستِخْدَامِهِم لِلْأَنَا لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ذَوَاتِهِم الخَبِيثَةِ، وقَدْ ذكَرَهُم القُرْآنُ تَرْهِيبًا مِنْ سُلُوكِ مَسَالِكِهِم، ويُمْكِنُنَا رَصْدُ بَعْضِ آيَاتٍ تَحدَّثَتْ عَنْهُمْ:

٢/٤/١- (أَنَا) النَّبَوِيَّةُ وَهِيَ أَعْلَى الذّوَاتِ البَشَرِيَّةِ:

لَمَّا كَانَتْ رِسَالَةُ الأَنْبِيَاءِ إِلَى البَشَرِ؛ فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونُوا مِنْهُم، لِيَفْهَمُوا الخِطَابَ الإِلَهِيَّ، والتَّكليفَ الرَّبَّانِيَّ، وتَجْرِي عَلَيهِم ومِنهُم أُمُورُ البَشَرِ؛ كَمَا فِي دَلَالَةِ ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (يوسف: ١٩). وقَدْ بَيَّنَ (ﷻ) أَنَّ الرُّسُلَ قَالُوا لأَقْوامِهِم مِثْلَ ذَلِكَ ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾(إبْرَاهِيم: ١١)[1].

ومعَ أنَّ الأَنْبِيَاءَ مِنَ البَشَرِ فَهُمْ مُفَضَّلُونَ بالوَحْيِ، وبِمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِم مِنَ الرِّسَالَةِ وَدَرَجَتِها، وهَذَا هُوَ الفَارِقُ بَينَ الأَنْبِيَاءِ وغَيْرِهِمْ؛ فَهُم في مَبدَأ الأَمرِ مُتَسَاوُونَ مَعَ البَشَرِ في الخِلقَةِ، ولكِنَّهُمْ مُفَضَّلُونَ بالوَحْيِ والمُعْجِزَةِ والبَيِّنَاتِ، وأَيَّدَهُمْ بالحُجَجِ والبَراهِينِ؛ فَلَا تَجُوزُ المُقَارَنَةُ بَينَ النَّبِيِّ وَغَيرِهِ مَعَ كَوْنِ مَادَّتِهِم وَاحِدَةً؛ فَجَاءَتِ (أَنَا) النَّبَوِيَّةُ لِتُؤَكِّدَ ذَلِكَ كلَّهُ؛ مِثْلَ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف:

(١) الشَّنْقِيطِيُّ، ١٨/٦.

١١٠)، ومثل ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت: ٦).

وفي الآيتين إِظْهَارٌ وتَقريرٌ لبَشَرِيَّةِ الرَسُولِ أوِ النَّبِيّ وقدْ جَاءَ بَعدَها في كِلتَا الآيتَينِ ما يُمَيِّزُ ذَاتَ النَّبِيّ (ﷺ) عَنْ غَيْرِهِ مِنْ ذَوَاتِ البَشَرِ، وكأَنَّهُ يَقُولُ: لا امتِيَازَ بيني وبينَكُم في شَيءٍ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا أَنْ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَهُدِيتُ إِلَى الاسْتِقَامَةِ في العَمَلِ(١).

ويُمكِنُنَا أنْ نَكشِفُ فِي الآيَةِ الأُوْلَى أُمُورً ثَلَاثَةً؛هِيَ: الأَوَّلُ أَنَّ ذَاتَهُ (ﷺ) بَشَرِيَّةٌ، لَا تَدَّعِي الإِحَاطَةَ بِكَلِمَاتِ اللهِ إِلَّا أَنَّهُ اِمتَازَ عَنهُم بالوَحْيِ(٢)، والثَّانِي: أَنَّ ذَاتَهُ (ﷺ) تَتَلَقَّى العِلْمَ اللَّدُنِيَّ مِن قِبَلِ المَولَى (ﷻ)، وهَذَا مِن وُجُوه تَميُّزِ ذَوَاتِ الأَنْبِيَاءِ عَنْ ذَوَاتِ البَشَرِ، غير أَنَّهُ (ﷺ) لا يَعْلَمُ إِلَّا مَا يُعلِمُهُ اللهُ تَعَالَى، مِنْ عِلمِهِ الذي لا يُحصَى، وأَوَّلُ مَا عَلَّمَهُ (ﷻ) لِنبيِّهِ وَأَمرَهُ أَنْ يُبلِغَ النَّاسَ بهِ هُوَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ(٣)، والثَّالِثُ: أَنَّهُ (ﷻ) عَلَّمَ رَسُولهُ (ﷺ) التَّوَاضُعَ لئَلَّا يَزهُوَ عَلَى خَلقِهِ؛ فأمَرَهُ أَنْ يُقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ آدمِيٌّ كَغَيرِهِ إِلَّا أَنَّه أُكرِمَ بالوَحْيِ(٤).

وتَتَلُّ {أَنَا} في الآيةِ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ (ﷺ) وأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ كبقِيّةِ النَّاسِ، إِلَّا أَنَّهُ يَمْتَازُ بِتَلَقِّي التَّعْلِيمِ اللَّدُنِيِّ مِنْ قِبَلِ اللهِ، والتَّبْلِيغِ عنِ اللهِ، والدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِهِ. ومعَ كلِّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ التِي تَذوبُ مَعَهُا المُقارنةُ بَينَ الأَنْبِيَاءِ والبَشَرِ؛ لبُعْدِ الدَّرَجَاتِ وبُلُوغِ أَعْلَى المَقَامَاتِ، فإنَّ ذَاتَ النَّبِيِّ (ﷺ) مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّوَاضُعِ.

---

(١) الرَّازِيّ، ١٥٠/٢١، ابنُ عادِلٍ الحَنْبَلِيّ، ٥٧٤/١٢، البَيْضَاوِيّ، ٥٢٧/٣.

(٢) القُرطُبيّ، ٢٦٤/٤، الشَّوكَانِيُّ، ٣١٨/٣.

(٣) القُرطُبيّ، ٦٩/١١ .

(٤) ابنُ الجَوْزِيِّ، زادُ المَسِيرِ، ٢٠٢/٥، الخازن، ١٨٠/٣.

وتُضِيفُ أَنَا في الآيةِ الثَّانِيَةِ إِلَى ما بيَّنَتْهُ الأُولَى أنَّ ذاتَ النَّبيّ (ﷺ) مأُمُورةٌ بِامْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ والاسْتِقَامَةِ عَلَيهِ، فإنَّ خِطَابَ التَّوْحِيدِ والاسْتِقَامَةِ يَشْمَلُ جَمِيعَ البَشَرِ، وَهُوَ منهُم؛ فَلَا يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ والاسْتِقَامَةِ بِمَا تَنبُو عَنْهُ العُقُولُ، وإنَّمَا بِمَا تَميَّزَ بهِ مِنَ اِمْتِثَالهِ واستِقَامَتهِ، وهُمَا أَمْرَانِ دَلَّ عَلَيهِمَا دَلَائِلُ العَقْلِ وشَوَاهِدُ النَّقْلِ[١].

وبنَاءً عَلَى هَذَا فَقَدْ أَضَافَتْ أَنَافي الآيةِ الثَّانِيَةِ إِلَى الأُمُور الثَّلَاثةِ التي بيَّنَتْها الآيةُ الأُوْلَى، أَمرينِ آخَرينِ؛ هُمَا: اِمتِثَالُ ذَاتِهِ (ﷺ) بالتَّوْحِيدِ فَيَكُونُ الآخَرونَ مثلهُ مَتى امتَثَلُوا مَعَ بقَاءِ فَضِيلَتهِ (ﷺ) أَنَّهُ أوَّلُ المُسْلِمينَ، اِسْتِقَامَةُ ذاتهِ (ﷺ) فلَو استقامُوا مثلَهُ تشبَّهُوا بهِ معَ بقاءِ فَضِيلَتِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ العَابِدِينَ، فلَا عِبَادَةَ لأحدٍ كَعِبَادَتِهِ (ﷺ).

ويبقَى في الآيتين أنَّهُ (ﷺ) وإِخْوَانُهُ الأَنْبِيَاءَ لهُم التَّميُّزُ الأَعْلَى فِي ذَوَاتِهِم لِأَنَّهُم يُوحَى إِليهِم. ومن يتأمَّلْ الآيَاتِ الأُخرَى التي ورد فيها ذلكَ يَجِدْ أنَّها للكشفِ عَن ذَوَات الأَنْبيَاءِ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

١/١/٤/٢- **بَشَاشَةُ الإيمَانِ:** جَاءَتِ الأَنَوَاتُ النَّبَوِيَّةُ فِي بَعضِ الآيَاتِ لِتكْشِفَ عَنْ مُخَالَطَةِ ذَوَاتِهِم بشَاشَةَ الإيمَانِ، والانْغِماسِ فِي أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ؛ فاستبقُوا إِلَى الإقرَارِ بالوَحْدَانِيَّةِ، وتَبَرَّؤُوا مِنَ الشِّركِ وآلهِ، فَعَظُمَتْ نفُوسُهم، وسَمَتْ أَروَاحُهُم.

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ما يَحْكِيهِ القُرْآنُ عَن إِبْرَاهِيمَ,(عليه السلام) أَنَّهُ أقامَ الحجَّةَ عَلَى قَومِهِ وبيَّنَ لهُم فسادَ مُعْتَقَدِهِم، ثُمَّ قَالَ بعْدَ ذَلِكَ ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأَنْعَام: ٧٩)، فَأَنَت أَنَا بعدَ

(١) يُرَاجَعُ، البَيْضَاوِيّ، ١٠٦/٥، العمَادِيّ، ٣/٨، الشِّهاب، ٣٨٧/٧.

النَّفْيِ للدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِ دُخُولِهِ مَعَ المُشْرِكِينَ لَمَّا حَاجَجَهُم في أَصْلِ دينهم[1]؛ فَأَتَى النَّفْيُ في خَاتِمَةِ الآيَةِ بَعْدَمَا تَصَدَّرتْ بِإِعلَانِ تَوْحِيدِهِ مِنْ أَنَّهُ تَوَجَّهَ بوَجْهِهِ أَيْ: قَصَدَهُ (ﷻ) بِعِبَادَتِهِ وتَوْحِيدِهِ حَنِيفًا؛ أَيْ: مَائِلًا عَنِ الأَدْيَانِ البَاطِلَةِ والعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ كلِّهَا[2].

وخُتِمَتْ سُورَةُ الأَنْعَامِ، التِي أَعْلَنَ فيهَا إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) التَّوْحِيدَ والبراءَةَ منَ المُشْرِكينَ، بإعلَانِ مُحَمَّد (ﷺ) التَّوْحِيدَ تَابِعًا لأَبيهِ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٣) فَجَاءَ عَلَى لِسَانِهِ (ﷺ): ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأَنْعَام: ١٦١-١٦٣).

وَمَعْنَى الآيَاتِ: أَنَّ رَبِّي هَدَانِي وعَرَّفَنِي المِلَّةَ الحَنِيفِيَّةَ لإِبْرَاهِيمَ لِكَونِهِ حَنِيفًا، والمَقْصُودُ: الرَّدُّ عَلَى المُشْرِكِينَ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى الذين زَعَمُوا أَنَّهُم عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وما كَانَ مِنهُم في أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِم المُقِيمِينَ عَلَيْهِ أَصْلًا وفَرْعًا[3]؛ فَهُوَ {أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ}؛ أَيِ: المُسْتسلِمِينَ للهِ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ كَونَهُ أَوَّلًا لِمُسْلِمِي زَمَانِهِ[4].

---

(١) يُرَاجَعُ، القُرطُبيّ، ٢٨/٧، العمَادِيّ، ٢٠٧/٣، الأَلُوسِيُّ، ٢٠٣/٧ .

(٢) يُرَاجَعُ، القُرطُبيّ، ٢٨/٧، العمَادِيّ، ١٥٤/٣ .

(٣) يُرَاجَعُ، البَغَوِيّ، ٢١٠/٣، القُرطُبِيّ، ١٥٥/٧-١٥٦، الرَّازِيّ، ١٠/١٤، العمَادِيّ، ٢٠٧/٣.

(٤) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ١١/١٤، ابنُ عادِلٍ الحَنْبَلِيّ، ٥٣٥/٨، الأَلُوسِيُّ، ٣١٢/٤.

فَدلَّتْ أَنَافِي الآيَةِ عَلَى أَنَّ مِن صِفَاتِهِ (ﷺ) الذّاتِيَّةِ مُسَارعَةَ الامْتِثَالِ لِمَا أَمرَهُ (ﷻ) مِنَ الإِسْلَامِ، وبِمَا قدَّرَهُ وقَضَى بهِ؛ لِحَثِّ مَنْ خَلفَهُ عَلَى أنْ تتَحلَّى ذَوَاتُهم بهَذِهِ الصِّفةِ، معَ تميُّزِهِ بأنَّهُ أول المُسْلِمينَ لِأَنَّ إِسْلَامَ كلِّ نبيٍّ متقدِّمٌ عَلَى إِسْلَامِ أُمَّتِهِ[1]؛ وهُوَ ما أفادتُهُ أَنَامِن صِفَاتِهِ النَّابِعَة مِن ذَاتِهِ، وأنَّهُ أوّلُهُم إِسْلَامًا وَانقِيادًا لأَمْرِ ربِّهِ.

٢/٤/١/٢- الرِّضَا والإِذْعَانِ: يَأْتِي خَبَرُ مُوسَى (ﷺ) في الأَعرافِ ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٤٣)؛ مُشيرًا إِلَى تَطلُّعِ ذَاتِهِ إِلَى رُؤْيَةِ اللهِ، مَعَ استِحَالَةِ ذَلِكَ؛ إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الجَبَلِ وَصَعْقِ مُوسَى؛ حَتَّى أَيقَنَ استِحَالَةَ تَطلُّعهِ؛ فَتَحوَّلَتْ ذَاتُهُ إِلى رَاضِيَةٍ بِحُكْمِهِ (ﷻ)؛ فَأَذْعَنَ مُوسَى تائبًا راضِيًا ﴿ **سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ وقيلَ فِي مَعْنَى {وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}، بِأَنَّهُ لا يَرَاكَ أَحَدٌ، لِمَا رَآهُ مِن عَظمتِهِ وجَلَالِهِ؛ لِذَا قالَ {سُبۡحَٰنَكَ} قبلَ إذعانِهِ بأنَّهُ {**أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**}؛ تَنزيهًا وتَعظِيمًا ورضًا وتوبةً/{**تُبۡتُ إِلَيۡكَ**} مِن سُؤالِ الرُّؤيةِ[2]؛ فَدلَّتْ {أَنَا} في الآيةِ عَلَى ذَاتٍ رَاضِيَةٍ.

٢/٤/١/٣- التَّبشِيرُ والإِنذَارُ: تَدُلُّ (أَنَا) النَّبويّةُ أَيْضًا عَلَى تَحمُّلِ ذَوَاتِ الأَنبيَاءِ أَمَانَةَ الرِّسَالَةِ، وتَعظِيمِها، وأَدَاءِ وظِيفَتِهَا مِنَ الإِنْذَارِ والتَّبْشِيرِ؛ فَعَظُمَتْ

---

(١) يُرَاجَعُ، الزّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف، ٢/٨٤، أَبُو حيَّان، ٤/٧٠٤، الأَلُوسِيُّ، ٨/٧١، النّسَفِيُّ، ١/٣٥٩.

(٢) يُرَاجَعُ، ابنُ الجَوْزِيِّ، زادُ المَسِيرِ٣/٢٥٨، ابنُ كَثِيرٍ، ٢/٢٤٦، البَيْضَاوِيّ، ٣/٥٨، النّسَفِيُّ، ٢/٣٦.

أَقْدَارُهم، وَارتَفَعَتْ دَرَجَاتُهم بِمَا في ذَوَاتِهِم المُعَبَّرِ عَنْهَا بِقَوْلِهِمْ {أَنَا}؛ كَمَا وَرَدَتِ الآيَاتُ يَدُلُّ فيها النَّبِيُّ بِقَولِهِ: أَنَا عَلَى أَمَانَةٍ نَابِعَةٍ مِن ذَاتِهِ في نقلِهِ الرِّسالَةَ، فَهِيَ من صِفَاتِهِم الذَّاتِيَّةِ التي حَفِظَ اللهُ بِهَا ظَوَاهِرَ الرُّسُلِ وبَوَاطِنَهُمْ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالإِثمِ أوِ المَعْصِيَةِ؛ كمَا فِي قَولِ هُودٍ لِقَومِهِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٨)، فيذكرُ ما خَصَّ بِهِ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ مِنَ الصِّفَاتِ؛ كَالبلَاغِ والنُّصْحِ والأَمَانَة[١].

وَتَكشفُ أَنَا في الآيَةِ أَنَّ الأَمَانَةَ مدارُ الرِّسَالَةِ والتَّبْلِيغِ؛ فَهُودٌ (عليه السلام) وَصَفَ نَفسَهُ بالأمينِ تقريرًا لِلرِّسَالَةِ والنُّبُوَّة؛ لِيَردَّ دَعْوَى التَّكذِيبِ التِي يُتَّهَم بِهَا كُلُّ نَبِيٍّ مِنْ قِبَلِ قَومِهِ، كَأَنَّهُ يُحَدِّثُهُم عَنْ ذَاتِهِ، مُؤَكِّدًا لَهُم أَنَّهُ كَانَ قبلَ هَذِهِ الدّعوَى أَمِينًا، ما وَجَدُوا منْهُ غَدْرًا، ولَا مَكْرًا، ولا كَذِبًا؛ فكَيفَ يَنسِبُونَهُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ إِلَى الكَذِبِ؟![٢].

فَذَاتُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيهِم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ المُعبَّرُ عَنْهَا بِـ﴿أَنَا﴾ في حَدِيثِهِم لأَقوَامِهِم تحملُ الصِّفَاتِ الوَاجِبَةَ لَهُمْ، وأَعظَمُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الأَمَانَةُ؛ فَهِيَ الحِمْلُ العَظِيمُ الَّذِي حَمَلَهُ الإِنْسَانُ، ولا أَمَانَةَ أَعْظَمُ مِن أَمَانَةِ الرِّسَالَةِ وإِيصَالِ أَعبائِهَا إِلَى المُكَلَّفِينَ[٣].

وَتَقْتَضِي ذَاتُ الأَنْبِيَاءِ أَنْ يُعَظِّمُوا أَمْرَ الرِّسَالَةِ بِتَأْدِيَةِ وَظِيفَتِهَا مِنَ الإِنْذَارِ والتَّبْشِيرِ والدَّعْوَةِ إِلَى الحَقِّ وَهُوَ ما كَشَفَتْ عَنهُ أَنَا النُّبُوَّةِ الوَارِدَةِ في بَعضِ الآيَاتِ.

---

(١) يُرَاجَعُ، ابنُ كَثِير، ٢/٢٢٥.

(٢) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ١٤/١٢٧، ابنُ عادِلٍ الحَنْبَلِيّ، ١٤/٣٠١.

(٣) يُرَاجَعُ، أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٤/٣٢٧، الشهاب، ٨/٢٢٧.

أَمَّا الإنْذَارُ والتَّبْشِيرُ فَقَدْ وَرَدَ في سُورَةِ الأَعْـرَافِ ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ (الأعراف)، والنَّذِيرُ: مُبَالَغَةٌ فِي الإِنْذَارِ بالعِقَابِ عَلَى فِعْلِ المَعاصِي، والبَشِيرُ: مُبَالَغَةٌ فِي البِشَارةِ بالثَّوابِ عَلَى فِعْلِ الوَاجِباتِ(١).

وَجَاءَتْ بَعدَ الإقرَارِ بوَحْدَانِيَّةِ الله وأَنَّهُ النَّافِعُ الضَّارُّ، لتدلَّ عَلَى أنَّ النَّبِيَّ لَا يَفعَلُ إلَّا ما أقدرهُ اللهُ لَهُ، ولا يَعلَمُ إلَّا مَا علَّمَهُ، ومِنْ ثَمَّ يَكُونُ قَولُ الرّسُولِ (ﷺ) لِتَحْدِيدِ وَظِيفتِهِ مِنَ الإِنْذَارِ والبِشَارَةِ، لا الوُقُوفِ عَلَى الغُيُوبِ التِي لَا عَلَاقَةَ بينَها وبَينَ الأَحكَامِ والشَّرائِعِ، وقدَّمَ "النَّذِيرَ" عَلَى "البَشِيرِ" لأَنَّ المقَامَ مَقَامُ إِنْذَارٍ(٢).

فَجَمَعَتِ الذَّاتُ النَّبَوِيّةُ في الآيَةِ بينَ الإِيمَانِ ومَا يقتَضيهِ مِنَ الإقرارِ بمَعْرِفَةِ الله وَوَحْدانِيَّتِهِ، وما يتعَلَّقُ بذَلِكَ مِن صِفَاتٍ ذَاتِيَّةٍ وَاجِبَةٍ لِلرُّسُلِ؛ كالأَمَانَةِ فِي التَّبْلِيغِ، مَعَ بَيَانٍ لوظيفةِ النَّبِيّ المُتمَثِّلَةِ في الإِنْذَارِ والتَّبْشِيرِ للنَّاسِ أَجمَعِينَ مُؤْمِنِهِم وكَافِرِهِم.

٢/٤/٢- أَنَا البَشَرِيَّةُ الخَبِيثَةُ:

تَحَدَّثَ القُرْآنُ عَنْ ذَوَاتِ عِبادٍ ضَلُّوا وكَفَرُوا، فَتَحدَّثُوا عَن أَنفُسِهِم بِعُلُوٍّ واستِكْبَارٍ وكُفْرٍ بيِّنٍ، حتَّى حاوَلَتْ ذَوَاتُهُمْ الحَقِيرةُ مُضَاهاةَ ذاتِ اللهِ (ﷻ)، ومِنْ ذَلِكَ ما ورَدَ في قِصَّةِ النَّمْرُوذِ معَ إبْرَاهِيم (عليه السلام): ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)؛ فَفِي قَولِ النمرُودِ {أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ} دَلَالَةٌ عَلَى

---

(١) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ٦٩/١٥، العمَادِيّ، ٤٣٧/٤، الأَلُوسِيُّ، ٨٩/٩، الطَّاهِرُ بنُ عَاشُورٍ، ٧٩/٨.

(٢) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ٦٩/١٥، العمَادِيّ، ٣٠٢/٣، الأَلُوسِيُّ، ١٣٧/٩.

كُفْرِهِ البَواحِ، ولمْ يَقُلْ: "أَنَا الَّذي يُحيي ويُمِيتُ"؛ لأنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى اِخْتِصَاصِهِ بالإحيَاءِ والإمَاتَةِ، وهُوَ مَا يُعَارِضُهُ الحِسُّ ويُكذِّبُهُ؛ إِذْ قدْ حيَا ناسٌ قَبْلَ وجُودِهِ ومَاتُوا، وإنَّمَا أرَادَ أنَّ الوصفَ الذي اُخْتُصَّ باللهِ، هُوَ مُشَارِكُهُ فيهِ، واحتَالَ في ذَلِكَ بِأَنْ دَعَا رَجُلَينِ، فَقَتَلَ أَحَدَهُما، وأَطْلَقَ الآخَرَ[1]، مُتَصوِّرًا أنَّهُ بذَلِكَ أَحْيَا وأَماتَ؛ فَعَارَضَهُ إِبْرَاهِيمُ بِأَمْرِ الشَّمْسِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ[2].

وَقَدْ أَوْهمَتْ {أَنَا} الدَّالَّةُ عَلَى ذَاتِ النَّمْرُوذِ الخَبِيثَةِ هَاهُنَا بِأَمرَينِ؛ هُمَا: مُشَارَكَتُهُ للهِ في الإحيَاءِ والإمَاتَةِ، وَأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أنْ يُجَارِيَ إِبْرَاهِيمَ في إِيرَادِ الحُجَّةِ وردِّ الدَّلِيلِ؛ لِذَا تكَلَّمَ اللَّعِينُ بالكُفرِ حِينَ أرادَ إِبْرَاهِيم (عليه السلام) أنْ يُحاجَّهُ بِخَلقِ الحَيَاةِ والمَوتِ في الأَجسادِ، فَردَّ بما يُخَالفُ ذَلِكَ[3]، وكانَ يُمكِنُهُ أنْ يُثبِتَ لهُ إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) فسَادَ ما تُصَوِّرُهُ لهُ ذَاتُهُ الخَبِيثَةُ مِن أَنَّهُ لمَّا قَتَلَ إِنسَانًا فَقَدْ أماتَهُ، ولما تركَ الآخَرَ فَقَدْ أَحيَا، ولَكِنَّهُ (عليه السلام) عَدَلَ إِلَى إِيرادِ حُجَّةٍ أُخرَى؛ وَهِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ، وذَلِكَ لأَنَّ ما أَوردَهُ النَّمْرُوذُ في مُعَارَضَتِهِ للقُدرَةِ الإِلَهيَّةِ عَلَى الإحيَاءِ والإمَاتَةِ دَليلٌ وَاضِحٌ عَلَى ضَعفِ فَهمِهِ؛ لِأَنَّهُ عارَضَ اللَّفظَ بِمِثلِهِ، ونَسِيَ اختِلَافَ الفِعْلَينِ، فلمَّا عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) ضَعفَ عَقلِهِ انتقلَ إِلَى حجَّةٍ أُخْرى قَصْدًا لقطْعِ السَّبِيلِ عَلَيهِ[4].

ومنْ ثَمَّ؛ يُمْكِنُ القولُ بأنَّ (أَنَا) هَذِهِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَاتِ النَّمْرُوذِ فِي الآيَةِ دَلَّتْ عَلَى جَهالتِهَا فِي الفَهْمِ، وسُقْمِها في الفِعْلِ، وضَحَالتِها في الرَّأْيِ، ووَهمِهَا في

(١) أخرجه الطبريُّ، ٥٧١/٤–٥٧٢، رقم: ٥٨٩٩، ٥٩٠٠، ٥٩٠٣، ٥٩٠٤، ٥٩٠٥، عن قتادةَ ومُجَاهِدٍ والرَّبيع بن أنس والسّديّ. ويراجعُ، السُّيوطيّ، الدُّرّ المنثُور، ٣٠٦/٣.

(٢) أخرجه الطبريُّ، ٥٧٤/٤، رقم: ٥٩٠٣، عن عبد الرَّحمنِ بن زيدٍ. ويُرَاجَعُ القُرطُبيّ، ٢٨٥/٣، السِّيوطيّ، الدُّرّ المنثور، ٣٠٦/٣.

(٣) البَيْضَاوِيّ، ٥٥٩/١، الأَلُوسِيُّ، ١٧/٣.

(٤) ابنُ الجَوْزِيِّ، ٣٠٨/١.

مُشَارَكَةِ البارِي؛ وهَذِهِ الأَسْبَابُ جَعَلَتْهَا تُبْهتْ لمَّا أقامَ إِبْرَاهِيمُ عَليهَا الحُجَّةَ، وهِيَ الأَسْبَابُ التي تَحدَّثتْ عَنهَا الآيَاتُ الخاصَّةُ بِفِرْعَونَ، لعنهُ اللهُ؛ إِذْ أَعْمَتْــهُ (أَنَــا) المُتَكَبِّرةُ والنَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ عَنِ الحَقِّ حتَّى أَخَذَهُ اللهُ، فَجَعَلَهُ عِبرةً للأوَّلِــينَ والآخرينَ؛ كَمَا سيَأْتِي بَيَانُهُ.

٣- عَلَاقَةُ (أَنَا) بالنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ

لا يَخْفَى الرَّابطُ بَينَ أَنَاوالنَّفْس، فإنَّهَا عَلَمٌ عَلَيهَا، وسبق عُلَمَاءُ الإِسْـلَامِ فـي فَهْمِهِم لـ (أَنَا) في تَحديدِ العَلَاقَةِ بينَ أَنَاوالنَّفْس؛ فَقِيلَ: النَّفْسُ هِيَ ذَاتُكَ وحَقِيقَتُكَ، وَقَدْ ذَكرَ اللهُ تَعَالَى مُطلَقَ النَّفْسِ في القُرْآنِ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (الشَّمْس: ٧)، و ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦)، و﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (السَّجدَة: ١٧)، كَمَا وَصَفَها بالأَمَّارَةِ بالسُّوءِ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ (يوسف: ٥٣)، واللَّوَّامَةِ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(القيامة: ٢)، والمُطْمَئِنَّةِ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر: ٢٧)"؛ لِذَا فَهِيَ التِي أُشيرُ إليهَا بقَولِي: أَنَا، وحِينَ الإِخْبَارِ عَنْها بِقَولِي: ذكرْتُ، وقُلتُ، وَفعلْتُ، ورأَيْتُ، وسَمِعْتُ إلخْ[١].

وتَظهرُ عَلَاقَة "أَنَا" بالنَّفْسِ؛ مِن دَلَالَةِ: "أنا"عَلَى النَّفْسِ؛ فَهِيَ الجَوهَرُ الذي يَصْدُرُ عَنْهُ سُلُوكيَّاتٌ بِهَا يُمتدَحُ الشَّخْصُ التَّقِيُّ، ويُذمُّ الفَاجِرُ؛ لِذَا أَقْسَمَ الحَقُّ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشَّمْس: ٧، ٨)؛ فقَسَّمَ النَّفْسَ الإِنْسَانيَّةَ، ووَضَعَ لَهَا آدابًا ليُقوِّمَها، ويَنْحُو بِهَا نَحوَ صَالِحِها، فَجَعَلَهَا ثلاثةَ أنواعٍ؛ هِيَ: الأَمَّارَةُ الدَّاعِيَةُ للسُّوءِ، وَاللَّوَّامَةُ التي تلُومُ صَاحِبَها عَلَى السُّوءِ، وَالمُطْمَئِنَّة التي بلَغَتِ الرِّضَا والطُّمَأْنِينَةَ.

ويُمْكِنُنَا تَعرِيفُ كُلِّ نَوعٍ مِن هَذِهِ الأنواعِ، وعَلَاقَتِهِ بـ(أَنَا) عَلَى النَّحْوِ الآتي:

٣/١- **النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ:** تَتَمثَّلُ في النَّفْسِ الشَّهَوِيَّةِ العُدْوانيَّةِ الأَنَانيَّةِ وَهِيَ جوانبُ فُطِرَ عليها الإِنْسَانُ؛ كَمَا تَدُلُّ (أَنَا) الصَّادِرَةُ عَنِ اِمْرَأَةِ العَزِيزِ

(١) يُرَاجَعُ، الرَّازيّ، ٣١/١٦١.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥١– ٥٣)؛ فَمِنْ طَبِيعَتِهَا أَنَّها تَأْمُرُ صَاحِبَها بالسُّوءِ إنْ أَحْسنَ إليهَا قابلتْهُ بِالسُّوءِ، وإنْ أَهانَها دلَّتْهُ، واستدلَّ عَلَى هَذَا بحديثِ النَّبيِّ (ﷺ) "ما تَقُولُونَ في صَاحِبٍ لكُم إنْ أنتُم أَكرَمتمُوهُ وأَطَعتمُوهُ وكَسَوتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إلَى شَرِّ غَايَةٍ، وإنْ أَهَنتمُوهُ، وأَعريتمُوهُ وأَجَعتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إلَى خَيرِ غَايَةٍ" قالُوا: يا رَسُولَ الله: هَذَا شَرُّ صَاحِبٍ في الأَرْضِ، فَوَ الَّذي نَفْسِي بيدِهِ إنَّها لَنفُوسُكم التي بَينَ جُنُوبِكُم"[(١)].

وتَأتِي (أَنَا) في القُرْآنِ لتُعطِيَ نَمَاذِجَ مُتَعَدِّدَةً للنَّفْسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ: ويَأْتِي فِرْعَونُ في مُقَدِّمَةِ هَذِهِ النَّمَاذِجِ الذي دَفَعتْهُ (أَنَا) المُعَبِّرَةُ عَنْ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ إِلَى أَنْ يقُومَ خَطِيبًا، ويَحشُرَ النَّاسَ، ويُنادِي فِيهِم بأَعْلَى صَوتهِ أَنَّهُ رَبُّهُم الأَعْلَى ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(النَّازعاتِ: ٢٣–٢٤) أَيْ: لَا رَبَّ فَوقِي؛ وهِيَ قَولَةٌ عَظِيمةٌ[(٢)] دالَّةٌ عَلَى (أَنَا) المُعَبِّرَةِ عَنْ نفْسٍ أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ، اِستَحوَذَ علَيها الشّيْطَانُ، فأَصابَهَا الغُرُورُ والجُنُونُ، وَدَعَتْ صَاحِبَها إِلَى أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فيتعرَّضَ لِمَقْتِ اللهِ وغَضَبِهِ: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ (النَّازعات: ٢٥) إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الغُرُورِ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص:

(١) ذكره القرطبيُّ في تَفْسِيره، ٧/١٣، بلا إِسْنَاد ولمْ أَجِدْهُ بهَذَا اللَّفْظِ، وله شاهدٌ من حَـديثِ الأشجعي مرفوعًا بلفظِ: ليسَ عدوّكَ الذي إذا قتلكَ أدخلكَ الجَنَّةَ، وإذا قتلتـهُ كـانَ لـك نورًا، أعدَى عدوٍّ لكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ. أخرجهُ الخرائطـيُّ مُنقطعًـا، ٣٢، وابـن بشران، ٧٧.

(٢) ابنُ الجَوْزِيِّ، ٢١/٩، الأَلُوسِيُّ، ٣٠/٣٠، العمَادِيّ، ١٠٠/٩.

٣٨) وكَانَتْ قَولَتُهُ الأُولَى: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وبَينَ قَولتَيهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً[١]؛ لِذَا كانَتْ هَذِهِ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ سَبَبَ غرقِهِ وهَلَاكِه ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس، آية: ٩٠)؛ فَدَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لا تَنفكُّ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ عنِ (أَنَا) الخَبِيثَةِ، التي جَعلَتْ فِرْعَونَ يَعِيشُ مُتَكَبِّرًا كَافِرًا؛ فَحَتَّى وَقتِ هَلَاكِهِ يَتَمَسَّكُ بدُنْيَاهُ بِإِيمَانٍ زَائفٍ.

فَأَعْلَنَ التَّوْحِيدَ حينَ ﴿ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ وَقَدْ أَيِسَ مِنْ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ ولمْ يَبقَ لهُ اختيارٌ[٢]، فَأَرَادَ النَّجَاةَ بأَيَّةِ طَرِيقَةٍ، فأَعْلَنَ إِيمَانًا مَزعُومًا حَالَ الغَرَقِ ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، ولَمْ يَقُلْ كَمَا قَالَ السَّحَرَةُ: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢١، ١٢٢)، بَلْ عَبَّرَ عَنهُ (ﷺ) بالمَوصُولِ، وَجَعَلَ صِلتَهُ إِيمَانَ بَنِي إِسرَائِيلَ؛ للإِشْعَارِ بِرجُوعِهِ عَنِ الاستِعْصَاءِ، واتِّبَاعِهِ مَنِ اِستتْبَعَهم طَمعًا فِي القبُولِ، والانتِظَامِ فِي سِلْكِ النَّجاةِ[٣]حِيلَةً لِيائسٍ مِنَ الحَيَاةِ؛ ولِذَا لَمْ يَنفَعْهُ خُضُوعُ ذاتهِ المُتَكَبِّرةِ حينَ قَالَ: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠) أَي: الذينَ أَسْلَمُوا نُفُوسَهم للهِ[٤].

---

(١) ذكرهُ السّيوطيُّ، الدُّرُّ المَنْثورُ، ٤٦٨/١١، وعزاه لابن مردويهِ عن ابن عَبَّاسٍ، وأخرجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ في تَفْسِيرِهِ، ٣٣٩٨/١٠، رقم: ١٩١٢٢، وعبد بن حميد في تَفْسِيرِهِ، الدُّرُّ المَنْثورُ، ٢٣٢/١٥، وأخرجهُ الطبريُّ، ٨٤/٢٤، رقم: ٣٦٦٠١، عن مُجَاهِد، وأخرجه عبد الرزَّاق في تَفْسِيرِهِ، ٣٨٩/٣، رقم: ٣٤٨٦ عنْ خيثمةَ.

(٢) يُرَاجَعُ، البَيْضَاوِيّ، ٢١٣/٣، العمَادِيّ، ١٧٣/٤ .

(٣) يُرَاجَعُ، البَيْضَاوِيّ، ٢١٣/٣، العمَادِيّ، ١٧٣/٤.

(٤) يُرَاجَعُ، العمَادِيّ، ١٧٣/٤، الأَلُوسِيُّ، ١٧١/٦.

فَلَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ لكُفْرِهِ وتَكبُّرِهِ واستِكبَارِهِ فَردَّ اللهُ عليهِ وبيَّنَ فسَادَه ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس: ٩١)، فلَمْ تُقبَلْ توبتُهُ إذْ شَاهَدَ العَذَابَ[١]؛ فَصَارَتْ نفسهُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ تُغْرِيهِ (أَنَا) المُتَكَبِّرةِ المَغـرُورَةِ حَتَّى أُغْلِقَ في وَجْهِهِ بابَ التَّوبةِ.

٣/٢- النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ:

هِيَ النَّفْسُ التي تَلُومُ صَاحِبَها مَتَى اِرتَكَبَ ذَنْبًا، وتُراجِعُهُ وتُحاوِلُ العَودَةَ بـهِ إِلَى الحَقِّ والاستِغفَارِ والطَّرِيقِ المُستَقِيمِ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ١، ٢). وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ومُجَاهِدٌ والحَسَنُ وغيرُهم في تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيةِ الكَرِيمَةِ: إِنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ لا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نفسَهُ، ولَا تَراهُ إِلَّا يُعاتِبُهَا[٢]: مَا أَردْتُ بكَلَامِي؟ مَا أردْتُ بأَكْلِي؟ ما أَردْتُ بحَدِيثِ نَفْسِي؟ ولا تـرَى الفَاجِرَ يُحَاسِبُ نَفسَهُ[٣]؛ في حينِ تَلُومُ نَفْسَ المُؤْمِنِ عَلَى ما فَاتَ وتَنْدَمُ عَلَى شَرٍّ فعَلَتْهُ، وعَلَى خَيرٍ لمْ تَستكثِرْ منهُ[٤]. وقِيلَ: تلومُ نفسَها بِمَا تلومُ بِهِ غيرَها[٥]؛ فعلَى ذلِكَ فَاللَّوَّامَةُ هِيَ اللَّائِمَةُ، وَهِيَ صِفَةُ مَدْحٍ؛ لِذَا جَاءَ القَسَمُ حَسَنًا سَائغًا بها[٦].

ومَتَى ثَبَتَ هَذَا تَحدَّدَ مَدَى استِجَابَةِ النَّفسِ اللَّوَّامَةِ لإِنْذَارِ اللهِ؛ فَتَتَحَذرُ نَفْسَهَا وتُحَاذِرُ منَ الوُقُوعِ فيما نُهِيتْ عَنْهُ؛ وبِذَا تَرتَبطُ النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ بـ (أَنَا) المُنذِرةِ

(١) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ٧/١.

(٢) يُراجَعُ، الثَّعْلَبِيُّ، ٨١/١٠، القُرطُبِيّ، ٩٣/١٩، الحَنْبَلِيّ، ٥٤٠/١٩، والسّيوطيُّ، الدرُّ المنثورُ، ٩٧/١٥.

(٣) أخرجهُ ابن أَبي الدُّنْيَا في محاسبة النَّفْسِ رقم: ٤، وذكرهُ السُّيوطيُّ، الدُّرُّ المنثور، ٩٧/١٥.

(٤) أخرجه الطبريُّ، ٤٧٠/٢٣، رقم: ٣٥٨٦٢.

(٥) يُراجَعُ، القُرطُبِيّ، ٩٣/١٩، المَاورْدِيُّ، ١٥١/٦.

(٦) يُراجَعُ، القُرطُبِيّ، ٩٢/١.

في القُرْآنِ، وَهِيَ (أَنَا) المُرْتبطَةُ بِنفُوسِ الأَنْبِيَاءِ؛ لِذَا كثُرَ نَعْتُ الرَّسُولِ (ﷺ) نفْسَهُ بالنَّذيرِ بعدَ {أَنَا} نحوَ ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحِجر: ٨٩)، وقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحجّ، آية: ٤٩)، وقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ (سُورَة ص،: ٦٥)، وقَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشُّعراء: ١١٤، ١١٥).

ويُلَاحَظُ فِي الآيَاتِ أنَّ الإِنْذَارَ يَعقبُهُ قَوْلُهُ: {مُّبِينٌ}؛ أَي إنَّهُ (ﷺ) بيّن الإِنْذَارَ عَلَى الطّرِيقِ الأَكْمَلِ والبَيَانِ الأَظْهرِ؛ فَالمُرَادُ: مَجِيءُ الإِنْذَارِ بَعْدَ بَيَانِ الحُجَجِ الوَافيَةِ والبَرَاهينِ الشَّافيَةِ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ وَعَدَمِ مُخَالفَتِهِ[1]، وهُو دَأْبُ الرَّسُولِ فِي دَعْوَتِهِ أَنْ يُبيِّنَ وأَنْ يُنذِرَ مَنْ عَمِيَ عَنِ الحُجَجِ والبَراهِينِ السَّاطِعَةِ؛ فقدمَ أنَّهُ منذرٌ عَلَى بَيَانِهِ: ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحجر: ٨٩) أيْ: أُنْذركُم ببَيَانٍ وبُرْهَانٍ أَنَّ العَذابَ نازلٌ بمَنْ لَمْ تُؤمنُوا[2]؛ فالنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ هيَ التي تَسْتَجيبُ لهَذَا الإِنْذَارِ؛ لترتقِيَ إلى النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ وتَنَالَ الثَّوَابِ مِن ربِّها (ﷻ)، وتَنجُو مِن عقابِهِ وانتقامِهِ؛ عَلَى ما يَتَّضِحُ.

٣/٣- النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ:

النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: هيَ نَفْسُ اِطْمَأَنَّتْ إلى لقاءِ ربِّها بعدَ مُجَاهِدتِها ومُراقَبتِها ومُحاسَبَتِها؛ وَهِيَ أرقَى مراتبِ النَّفْسِ، بإِيمَانِها باللهِ، ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ واليَومِ الآخِرِ والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ، واتِّباعِ ما أَمرَ اللهُ والانتهاءِ عَمَّا حرَّمَ ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨)؛ فَلَمَّا ذُكِرُ حَالُ مَنْ

(١) الرَّازِيّ، ١٦٨/١٧، ١٦٨/١٩.

(٢) الزّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف، ٥٨٩/٢، البَيْضَاوِيّ، ٣٨٢/٣، النسفِيُّ، ١٤٧/٢، الشِّهاب، ٣٠٦/٥.

همَّتهُ الدُّنْيَا؛ فاتَّهم اللهَ في إِغنَائِهِ وإِفقارِه، ذكَرَ حالَ مَنِ اطْمَأَنَّتْ نفْسُهُ للهِ؛ فسَلَّمَ أَمرَهُ إليهِ، وتَوَكَّلَ علَيهِ.

وتعدَّدَتْ أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي المُرَادِ بالنَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ فَقِيلَ: هِيَ المُوقِنَةُ السَّاكِنَةُ، حينَ أيقنَتْ أنَّ اللهَ ربّها، فأَخبتَتْ[١]، وقَالَ ابن عبَّاسٍ: هِيَ المُطْمَئِنَّةُ بثَوَابِ اللهِ[٢].

وقَالَ الحَسَنُ: المُؤْمِنَةُ المُوقنَةُ[٣]، وقالَ مُجَاهِد هِيَ الرَّاضِيَةُ بقَضَاءِ اللهِ، التِي علِمَتْ أنَّ ما أخطَأَهَا لمْ يكُنْ لِيُصيبَها، وما أَصابَهَا لَمْ يكُن ليُخْطِئَهَا[٤]، وقَالَ مُقَاتِلٌ: هِيَ الآمِنَةُ مِنْ عذَابِ اللهِ[٥]، وفي حَرفِ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ {يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ}؛ أي التي عمِلَتْ علَى يقِينٍ بمَا وعَدَ اللهُ في كِتَابهِ[٦]، وقَالَ ابنُ كيسَان: هِيَ المُخْلِصَةُ[٧]، وابنُ عطَاءٍ: هِيَ العَارِفةُ التي لا تَصبِرُ طَرفَةَ عَينٍ عنهُ[٨]، وقِيلَ: مُطْمَئِنَّةٌ بذكرِ اللهِ[٩] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(الرعد: ٢٨) وقِيلَ: مُطْمَئِنَّةٌ بالإِيمَانِ، مُصَدِّقَةٌ بالبَعثِ

(١) القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠.
(٢) القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، الحَنْبَلِيّ، ٣٣٠/٢٠.
(٣) الثَّعْلَبِيُّ، ٢٠٢/١٠، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، البَغَوِيّ، ٤٢٣/٨، الشَّوكَانِيُّ، ٤٩٤/٧، الحَنْبَلِيّ، ٣٣٠/٢٠.
(٤) أخرجه الثَّعْلَبِيُّ، ٢٠٣/١٠، وتُنظَرُ المصادرُ السَّابِقَةُ.
(٥) الثَّعْلَبِيُّ، ٢٠٢/١٠، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، البَغَوِيّ، ٤٢٣/٨، الشَّوكَانِيُّ، ٤٩٤/٧، الحَنْبَلِيّ، ٣٣٠/٢٠.
(٦) يُراجعُ، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، الحَنْبَلِيّ، /٣٣٠.
(٧) يُراجعُ، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠.
(٨) يُراجعُ، السَّابِقُ نفسُهُ، الصّفحةُ نفسُها.
(٩) يُراجعُ، نفسُهُ.

والثَّوَابِ[1]، وقَالَ ابنُ زَيدٍ: لِأَنَّهَا بُشِّرتْ بالجَنَّةِ عندَ المَوتِ، والبَعثِ، ويَومِ الجَمْعِ[2]، ورُوِيَ عَنْ بريدةَ قَولُهُ: يعنِي نفْسَ حَمْزةٍ[3].

وَعقَّبَ القُرْطُبِيّ[4] عَلَى هَذِهِ الأَقوَالِ بِأنَّ الصَّحِيحَ أنَّهـا كُلُّ نَفْسِ مُؤْمِنٍ مُخْلِصٍ؛ فقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ الله (ﷺ): إنَّ اللهَ تَعَالَى إذَا أَرادَ أن يقبِضَ رُوحَ عَبدِهِ المُؤْمِنِ اِطْمَأَنَّتِ النَّفْسُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، واِطْمَأَنَّ اللهُ إليهَا[5]، وَقِيلَ: إذا توفِّي المُؤْمِنُ أرسلَ اللهُ مَلَكينِ، وأرسلَ مَعَهُمَا تُحفةً منَ الجَنَّة، فَيَقُولانِ: "اخرُجِي أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ رَاضِيَةً مرضيَّةً، مرْضيًّا عنكِ، اُخرُجِي إلى رَوحٍ ورَيحَانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غَضبانٍ، فتَخْرُجُ كأطْيَبِ ريحِ المِسْكِ .."[6].

وتَأتِي (أَنَا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ لتَعْكِسَ صفَاءَ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ، وقُوَّةَ إِيمَانِهَا؛ كَمَا يَظهَرُ في حِوَارٍ بينَ شَخْصَينِ في سُورَةِ الكَهفِ؛ يَحمِلُ أَحَدُهُما بَينَ جَنبَاتِهِ نَفْسًا أَمَّارَةً بِالسُّوءِ، ويَحمِلُ الثَّانِي نَفْسًا مُطْمَئِنَّةً؛ فَإِذَا بصَاحِبِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ (الكهف: ٣٤) فَيُعبِّرُ بذَلِكَ عَنِ اغترارِهِ بمَالِهِ وعشيرتِهِ وأَصحَابِهِ الَّذينَ يَتَباهَى بِهِمْ عَلَى غَيرِهِ، مؤكِّدًا أنَّ ذَاتَهُ مَذمُومَةٌ ليسَ لصَاحِبِهَا جنَّةٌ ولا نَصِيبٌ في الجَنَّةِ التي وُعِدَ بِهَا المُؤْمِنونَ المُتَّقُونَ[7].

---

(١) الثَّعْلَبِيّ، ٢٠٢/١٠، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، البَغَوِيّ، ٤٢٣/٨، الشَّوكَانِيُّ، ٤٩٤/٧، الحَنْبَلِيّ، ٣٣٠/٢٠.

(٢) القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠، الحَنْبَلِيّ، ٣٣٠/٢٠.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم في تَفْسيرِهِ، ٣٤٣٠/١٠، رقم: ١٩٢٩٠، والثعلبيّ ٢٠٥/١٠.

(٤) القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠ .

(٥) المَاوَرْدِيُّ، ٢٧٢/٦، القُرطُبيّ، ٥٧/٢٠.

(٦) السَّابِقُ.

(٧) الرَّازِيّ، ١٠٧/٢١ .

وتُعَبِّرُ (أَنَا) القانِعَةُ الحَسَنَةُ الظَّنِّ باللهِ عَنْ أَصْحَابِ النُّفُوسِ المُطْمَئِنَّةِ، بِمَا يَرُدُّ بِهِ المُسْلِمُ الصَّالِحُ عَلَى المَغرورِ بمَالِهِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (الكهف: ٣٩، ٤٠)، فَـ تُعبِّرُ {أَنَاْ} في الآيةِ عَن نفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ تَتَعلَّقُ بفَضْلِ اللهِ؛ لِذَا تَتوقَّعُ أَنْ يُقلِّبَ ما بِهَا مِنَ فَقْرٍ، وما بالمُتعَالِي من غِنًى؛ فَيَرزُقَها لإِيمَانِها جَنَّةً خيرًا مِن جَنَّةِ المَغْرُورِ ويَسلبَهُ نِعْمَتَهُ ويخربَ جنَّتَهُ(١).

فالآيَتانِ صِرَاعٌ بينَ نَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، تُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ، ونفسٍ أَمَّارَةٍ مُتَغطْرِسَةٍ.

وتُعبّرُ {أَنَاْ} في كَثِيرٍ مِنْ الآيَاتِ التي تَكْشِفُ الذَّواتِ النَّبَوِيَّةَ عَنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ؛ وَهِيَ نَفْسُ النَّبِيّ الآتِيَةُ بِكُلِّ حُجَّةٍ، الكَاشِفَةُ للبَاطِلِ، المُبِينَةُ للحَقِّ، المُؤدِّيَةُ للأَمانَةِ في تَبليغِ الدَّعوةِ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨)؛ فَتُؤكِّدُ {أَنَاْ} منهجَ الدَّعْوَةِ المُسْتَكِنَّ فِي {أَدْعُوٓاْ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ}(٢)، والمَعْنَى: {أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ}؛ أَيْ: عَلَى يَقِينٍ وَحَقٍّ وحُجَّةٍ وبُرْهَانٍ، لا عَلَى هَوًى، وهَذَا مَنهَجِي ومَنهَجُ مَنِ اتَّبعَنِي في سِيرَتِي وطَرِيقَتِي(٣).

وتَكَرَّرتُ أَنَاْ في خِتَامِ الآيَةِ {وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ}؛ لِتُعلِّقَ الخِتَامَ بتنزيهِهِ (ﷻ) عَمَّا يُشْرِكُونَ، فَبعْدَ إِيْضَاحِ المَنهَجِ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ ومَا بَعدَ

(١) يُرَاجَعُ، العمَادِيّ، ٥/٢٢٣ .

(٢) يُرَاجَعُ، العمَادِيّ، ٤/٣١٠، البَيْضَاوِيّ، ٣/٣١٢.

(٣) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ١٨/١٧٩، القُرطُبيّ، ٩/٢٧٤، النّسَفِيُّ، ٢/٢٠٧.

الوَاوِ ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مَعطُوفٌ عَلَى {هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ} فِي أوَّلِ الآيَةِ؛ أيْ: قُلْ سُبحانَ الله تنزيهًا عَمَّا يُشركُونَ(١).

وتأتِي في ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾(الأَنْعَام: ١٠٤) مُؤكِّدَةً ما سبَقَ مِنَ الدَّعْوَةِ إلَى الله ونَبْذِ الشِّركِ بِهِ(٢)، فينْفِي عَنْ ذَاتِهِ (ﷺ) أن يَكُونَ مِنَ المُشْرِكينَ في أَمْرٍ مِن أُمُورِ دِينِهِم أَصْلًا وفَرعًا. وأتَى قَوْلُهُ هَذَا بَعْدَ تَسبيحِهِ لله وتَنزيهِهِ عَنِ الشِّركِ؛ فنَاسَبَ ذَلِكَ أنْ يَنفِيَ عَنْ نَفْسِهِ أُمُورَ الشِّركِ وأهلِهِ مُؤَكِّدًا اِطمِئنَانَ نَفسِهِ، وأنَّها بلغَتِ الذِّروةَ في الإيمَانِ.

ويَتبيَّنُ مِن هَذِهِ الآيةِ أنَّ"أَنَا" الدَّالَّةَ عَلَى نفْسِهِ (ﷺ) أفادَتْ اِمتِلَاكَهُ مُقوِّماتِ شَخْصِيَّتِهِ مَنْهجًا عَظِيمًا لِلدَّعْوَةِ، يتَمَيَّزُ باليقينِ الثَّابتِ والدَّعْوَةِ إلى الحَقِّ الَّذي لا شَكَّ فيهِ، معَ استِدعاءِ الحُججِ والبَراهينِ لإِثْبَاتِ الحَقِّ من خِلَالِ التَّأثيرِ والإقناعِ؛ ليُؤدِّي وَظيفةَ الإِنْذَارِ والتَّبشِيرِ عَلَى أكملِ وجهٍ، وهُو مَنهجُهُ (ﷺ) ومَنهَجُ كُلِّ داعيةٍ مِن أتباعِهِ (ﷺ) مِمَّنْ وفَّقَهُ اللهُ إلَى هَذِهِ المَلَكَاتِ؛ ومن ثَمَّ يَظْهرُ أَنَّ الدَّالَّةَ عَلَى النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ فيمَا يتعلَّقُ بالأَنْبِيَاءِ لَهَا إِمْكاناتٌ خاصَّةٌ من صِفَاتٍ ذَاتِيَّةٍ، ووَظَائفَ نبويَّةٍ مِن خِلَالِ منهَجٍ مُتكَامِلٍ لِلدَّعْوَةِ؛ فحُقَّ لهُم أن يُؤَكِّدُوا عَلَى ذَلِكَ بِقَولِهِم: أَنَاتعَظِيمًا لدَورِهِم في هِدَايَةِ البَشَرِ، وتَأكيدًا لاطمِئنَانِ نُفوسِهِم؛ فَتَدُلُّ في هَذَا السِّيَاقِ عَلَى اِنتِفَاءِ نُفوسِ الأَنْبِيَاءِ ما لله من صِفَاتٍ؛ فهُوَ (ﷺ) الحَفِيظُ الوكيلُ.

(١) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ١٧٩/١٨، القُرطُبيّ، ٢٧٤/٩.

(٢) يُرَاجَعُ، الأَلُوسِيُّ، ٦٧/١٣.

وَجَاءَتْ آيَاتٌ بيِّناتٌ ذُكرَتْ فيهَا أَنَا الدَّالَّةُ عَلَى النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ لتنفِيَ عَنهَا هَـذِهِ الصِّفَات؛ كَمَا مَرَّ فِي قَولِـهِ (ﷻ): ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأَنْعَـام: ١٠٤) وقَوْلِـهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (يونس: ١٠٨)، وقَوْلهِ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٦).

وقَوْلُهُ فِـي الآيَـةِ الأُولَـى: {قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ} اسـتئنافٌ وردَ عَلَـى لسَـانِهِ (ﷺ) بدَليلِ قَوْلهِ في آخرِها {وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}[1]، ولِهَذَا الاسـتِئْنَافِ فائدتَانِ؛ هُما: تقْريرُ أَمرِ الدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ والرِّسَالَةِ، وبَيَانُ ما يتعلَّقُ بالرَّسُولِ مِنَ التَّبْلِيغِ، ومَا لا يَتعلَّقُ بهِ من هِدَايَةِ المَدعوينَ؛ فَهُوَ أَمْرٌ مَرجِعهُ للهِ (ﷻ) لِأَنَّهُ هُـوَ الحَفِيظُ علَيهم[2].

جَاءَتْ {أَنَا۠} بعد النَّفي بِمَا لينفيَ (ﷺ) عَن شَخْصِهِ وذاتِـهِ أن يَتَّصِـفَ بمَـا وَصفَ اللهُ بهِ ذاتَهُ مِن أَنَّهُ الحَفِيظُ عَلَى العِبَادِ، وإنَّما (ﷺ) مُنْذِرٌ لَهُـم، واللهُ هُـوَ الحَفِيظُ عَلَى عِبَادِهِ في جَمِيعِ شُؤُونِهِم؛ فيحفظُ أعمالَهم، ويجازيهم علَيها[3].

وفي الآية الثَّانِيَةِ: فُسِّر قَوْلهُ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾ (يـونس: ١٠٨) بِقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[4]، عنـد أغلبِ المُفَسّرينَ؛ فَقَالَوا:

(١) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيّ٤/١٩٩، العمَادِيّ، ٣/١٧٠، البَيْضَاوِيّ، ٢/٤٣٩.

(٢) الرَّازِيّ، ١٣/١٠٩، الحَنْبَلِيّ، ٨/٣٤٥.

(٣) العمَادِيّ، ٣/١٧٠، البَيْضَاوِيّ، ٢/٤٣٩، النّسَفِيُّ، ١/٣٣٩، الأَلُوسِيُّ، ٧/٢٥٩.

(٤) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٤/١٩٩، العمَادِيّ، ٣/١٧٠، البَيْضَاوِيّ، ٢/٤٣٩.

﴿بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحَفيظٍ مَوكُولٍ إلي أمرِكُمْ، وإنَّما ﴿أَنَا﴾ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ[1]، إلَّا أنَّ القُرْطُبِيَّ فَسَّرهَا بحفيظٍ، ولم يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: بِحَفيظٍ أَحفظُ أَعمالَكُم، إنَّمَا ﴿أَنَا﴾ رَسُولٌ[2]، وتَفْسِيرهُ تُفيدهُ الآيةُ السَّابِقَةُ.

وهَذِهِ الآيةُ معَ سَابقتِها تَنفِيانِ عنْ ذَاتِ النَّبِيِّ (ﷺ) الاتِّصافَ بأنَّهُ حَفيظٌ، أو وكيلٌ؛ فَهُما من صِفَاتِ الله تَعَالَى، مُختَصَّتَانِ بذاتهِ (ﷻ).

وتُبَيِّنُ الآيةُ الثَّالِثَةُ في قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عن شُعيبَ (عليه السلام): ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ (هود: ٨٦)، أنَّ شُعَيبًا (عليه السلام) ينصَحُ قَومَهُ بالتَّعلُّقِ بالحَلَالِ، فمَعْنَى قَوْلِهِ: أَيْ: ما أبقَاهُ لكُم منَ الحَلَالِ بعدَ التَّنزُّهِ عنْ تَعاطِي المُحَرَّمَاتِ[3]، ففِي ذَلِكَ خَيرٌ وطَاعَةٌ، ويَختِمُ نَصِيحَتَهُ بقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾؛ أي: لا قُدرةَ لي عَلَى منعِكُم عن هَذَا العَمَلِ القَبِيحِ[4]؛ لأنَّ الرَّقيبَ الهَادِيَ إلى الحَلَالِ إنَّما هُو الله (ﷻ).

أو يَكُون معناه: ليسَ لي من سَبِيل لأَحفظَكَم منَ القَبَائِح أو أحفظَ عليكُم أعمالَكُم فأجازيَكُم[5]، فإنَّما الحفيظَ المُجازِي هو الله (ﷻ).

وفسَّرَ القُرْطُبِيُّ قَوْلَهُ: ﴿بِحَفِيظٍ﴾ أي: رقيبٌ أراقبُكم عندَ كيلِكُم ووزنِكُم[6].

فـ ﴿بِحَفِيظٍ﴾ أتَتْ بعدَ النَّفي بـ(مَا) لينفِيَ شُعَيبُ عَنْ ذَاتِهِ صِفَاتِ الحَفِيظِ والرَّقيبِ والهَادِي والمُحصِي للأَعْمالِ المُجَازِي عَلَيها؛ فكُلُّها صِفَاتٌ مُتَعَلِّقَةٌ بذاتِ الله (ﷻ)، أمَّا هوَ فناصِحٌ ومُرشِدٌ فَحسبُ.

---

(١) العمَادِيّ، ١٨١/٤، البَيْضَاوِيّ، ٢١٨/٣، الأَلُوسيُّ، ٢٠١/١١.

(٢) القُرطُبيّ، ٣٨٩/٨.

(٣) القُرطُبيّ، ٨٦/٩، البَيْضَاوِيّ، ٢٥٢/٣، العمَادِيّ، ٢٣٢/٤.

(٤) الرَّازِيّ، ٣٥/١٨، القُرطُبيّ، ٨٦/٩.

(٥) العمَادِيّ، ٢٣٢/٤.

(٦) القُرطُبيّ، ٨٦/٩.

أَكَّدَتْ هَذِهِ الآيَاتُ المُتقدِّمةُ عَلَى أنَّ نفُوسَ الأَنْبِيَاءِ، مَهْمَا أُوتِيَتْ مِنَ الاطْمِئنانِ، والإمكاناتِ والملَكاتِ في الدَّعْوَةِ إلى اللهِ؛ فإنَّهم لا يهدُونَ العبادَ، ولا يراقبونَ الأعمالَ ولا يجازونَ بالحَسَنَاتِ، ولا يعاقبُونَ بالسَّيِّئَاتِ، فكلُّ هَذِهِ الأُمُورِ مُتَعَلّقةٌ بمرسلِهم وَهُوَ اللهُ (ﷻ)، فأقرَّ الأَنْبِيَاءُ بذَلِكَ ونفوا عن ذَوَاتهم ما سمّى أو وَصفَ اللهُ بهِ نفسَهُ، وفي هَذَا تعْظِيمٌ لدَرَجَاتِهِم عِندَ ربِّهِم، وتعَظِيمٌ لربِّهِم، وهَذَا مِمَّا لا يَخْفَى.

وتأكيدًا لكَمَال اِطمِئنانِ النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ؛ وأَنَّهُ لا يضارعُها في اطمئنانِها غيرُها منَ الأنفُسِ، تأتي (أَنَا) النَّبَوِيّةُ لتدلَّ عَلَى أن ذَوَاتِهم، عليهم الصَّلَاة والسَّلَامُ، تبرأُ من شِركِ الأَقوَامِ وإجْرامِهِم، وتُنكرُ عَليهِم صنَائعَهم؛ كما يظهَرُ، مثلًا، في قولِ اللهِ (ﷻ): ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (يونس: ٤١)؛ فتَأتي ﴿وَأَنَا۠﴾ هُنا لتدلَّ عَلَى أنَّ النَّبِيّ (ﷺ) قد أَجْهدَ نفسَهُ في دَعْوةِ القَوم، فتمادَوا في تكذيبِهِ، فأمرهُ اللهُ أنْ يتبرَّأَ منهم فقد أعذرَ وبلَّغَ، والمُرَادُ من الآيةِ الزَّجرُ والرَّدْعُ، معَ استمالةِ القُلُوبِ إلى الإيمَانِ[1].

فكأَنَّ ﴿أَنَا﴾ من رَسُولِ اللهِ (ﷺ) تَنبيهٌ لهُم عَلَى أنَّهُ يَبْرأُ منهم ليَنْزَجِرُوا، وطَلَبًا لإيمَانِهم، فقد استنفدَ كلَّ المُحاولَاتِ التي يُمليها عليهِ قلبُهُ.

وَقِيل: إنَّ هَذِهِ الآيةَ نُسِخَتْ بالسَّيفِ، وأبطَلَهُ الرَّازِيُّ قائلًا: "وهَذَا بَعيدٌ؛ لأنَّ شَرطَ النَّاسخِ أن يَكُونَ رافعًا لحُكمِ المَنسُوخِ، ومَدْلُولُ هَذِهِ الآيةِ اِخْتِصَاصُ كلِّ واحدٍ بأفعالهِ وبثمراتِ أفعالهِ منَ الثَّوَابِ والعِقَابِ، وذَلِكَ لا يَقتَضِي حُرمَةَ القِتَالِ، فآيةُ القتالِ ما رَفعَتْ شيئًا مِن مَدْلُولاتِ هَذِهِ الآيَةِ، فكانَ القولُ بالنَّسخِ باطِلًا"[2]، ومعَ عدَمَ القولِ بالنَّسخِ تظلُّ دَلَالَةُ قولِ النَّبِيّ (ﷺ) ﴿أَنَا﴾ براءَةَ ذَاتِهِ (ﷺ) منَ الشِّركِ وآلِهِ.

---

(١) الرَّازِيّ، ٨١/١٧، أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ١٦١/٥.

(٢) الرَّازِيّ، ٨١/١٧.

وَجَاءَ في البَراءَةِ مِنَ المُشْرِكينَ، أَيْضًا، في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (هود: ٣٥).

والضَّمِيرُ في ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ﴾ عائدٌ عَلَى قومِ نوحٍ، ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فَأكثرُ المُفَسِّرِينَ عَلَى أنَّهُ بَقيَّةُ كَلَامِ نُوحٍ (عليه السلام)، ولَيسَ من كَلَامِ مُحَمَّد (ﷺ)[1]، وجاءت ﴿ وَأَنَا۠ ﴾ للتَّأكِيدِ عَلَى هَذِهِ البَرَاءةِ؛ ممَّا يجرِّم قومَ نوحٍ منَ الكُفرِ والتَّكذيب[2].

والبراءةُ في الآيتينِ نَابِعَةٌ من نفسِ النَّبِيّ (ﷺ) ونفسِ أَخيهِ نُوحٍ (عليه السلام)؛ لأنَّ نُفُوسَ الأَنْبِيَاء المُطْمَئِنَّةَ المُوحِّدةَ السَّابِقَةَ إلى الإيمَانِ تَمقُتُ الكُفرَ والتَّكذِيبَ باللهِ تَعَالَى.

وتُكرِرُ ﴿ أَنَا ﴾ النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ، أَيْضًا، صَنيعَ الكافرينَ إِنْكَارًا شديدًا؛ كما يَدُلّ لِذَلِكَ قَوْلهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (هود: ٢٩)؛ فَيلوحُ لنَا في هَذِهِ الآيةِ خلقٌ من أخلاقِ المُصطفَى (ﷺ) هُوَ إِيثارُ المُهتدينَ عَلَى المُعاندينَ؛ وهُو مِمَّا تتَحلَّى بهِ نفسُهُ المُطْمَئِنَّةُ (ﷺ)، فلمَّا طُلِبَ منهُ أن يطردَ الفُقراءَ حتَّى يؤمنَ بهِ الوُجَهاءُ، بيَّنَ لهُم أنَّهُ لنْ يطردَهم، وعلَّلَ ذَلِكَ، فضلًا عمَّا في ذاتِه (ﷺ) منَ التَّوَاضُع والإيثار، بأنَّهم فائزونَ في الآخرةِ بلقاء الله (ﷻ)، أمَّا أنتُم فأراكُم لِغُرورِكُم وركَاكةِ رأيكُم في التماسِ طَردِهم، وتوقيفِ إِيمَانِكم عَلَى طرْدِهم أنفةً عنِ الانتظامِ مَعَهُم في سلكٍ واحدٍ، منَ الجَهالةِ التي أُنكرُها عليكُم[3]؛ كمَا تُشِيرُ

(١) أَبُو حيَّان، ٢٢٠/٥، الرَّازِيّ، ١٧٦/١٧، القُرطُبيّ، ٢٨/٩.
(٢) القُرطُبيّ، ٢٩/٩، العمَادِيّ، ٢٠٥/٤.
(٣) الرَّازِيّ، ١٧٢/١٧، العمَادِيّ، ٢٠٢/٤.

﴿ أَنَا ﴾ في هَذِهِ الآيةِ إلى تَواضُعِ الرَّسُولِ (ﷺ) وإلى حُنُوِّهِ عَلَى مَنْ آمنَ وتفضيلِهِ عَلَى غيرِهِ منَ المُشْرِكينَ، وإنْكَارِهِ جهلَ الكافرينَ في عدَمِ إدراكِ فضْلِ المؤْمِنينَ؛ وكل هَذَا نابعٌ منَ اطمئنانِ نفسهِ (ﷺ)؛ اطمئناناً لم يُحوجْهُ إلى الطَّمعِ في إيمَانِ وَجيهٍ عَلَى حِسَابِ ضَعيفٍ أو فَقيرٍ؛ ليُؤَكِّدَ أنّ النَّاسَ جَمِيعًا سواسيّةٌ، وأنَّ مِقياسَ التَّفاضُلِ بينَهم لا يَكُونُ إلَّا بالتَّقوى؛ مِصداقًا لقولِهِ (سبحانه وتعالى): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ (الحجرات: ١٣).

4- دَلَالَةُ ﴿أَنَا﴾ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

تَأْتِي ﴿أَنَا﴾ من حَيثُ عَلَاقَتُهَا بالذَّاتِ، أَو بِالنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، عَلَى مـا اتَّضَـحَ آنفًا، للدَّلَالَةِ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَتَنوَّعُ ما بَينَ الإخبَارِ عَنِ النَّفْسِ بِبعْضِ صِـفَاتِها أو العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، أَو العِزَّةِ والثِّقَةِ، أَوِ الكِبْرِ والخُيلَاءِ المَمقُوتين؛ بحَيثُ يُمْكِنُ القولُ بأَنَّ دَلَالَةَ (أنَّ) في القُرْآنِ الكَرِيمِ تَتوزَّعُ عَلَى أَرْبَعِ دَلَالَـاتٍ عَلَـى النَّحْـو الآتِي:

٤/١- الدَّلَالَةُ عَلَى الإِخْبَارِ عَنِ النَّفْسِ:

جَاءَتْ ﴿أَنَا﴾ للإخبارِ عَنِ النَّفْسِ بِبَعْضِ صِفَاتِها وبَيَانِ حَالِهَا التِي هِيَ عَلَيهَا في عَددٍ منْ آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ؛ منِهَا: مَا ورَدَ في قَولِ زَوْجَةِ إِبْـرَاهِيم (عليه السلام): ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ (هـود: ٧٢)، وجَاءَتْ ﴿أَنَا﴾ لبَيَانِ الاخْتِصَاصِ بالضَّمانِ والكِفايةِ في قَـوْله تَعَـالَى: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف: ٥١).

ووَقعَ في حَدِيثِ العِفْرِيتِ والعَبدِ الصَّالحِ؛ فكِلَاهُما قالَ: ﴿أَنَا﴾للإخبارِ عـن قوَّةِ ذَوَاتِهِما وقُدْرتِهما عَلَى الإتْيَانِ بعَرشِ بلقيسَ؛ فقَالَ العِفْرِيتُ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ (النمل)، وقَالَ الذي عنـده علم الكِتَاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل).

وفي قصَّةِ ابنَي آدمَ جاءَتْ ﴿أَنَا﴾في مَعْرِضِ إخبارِ هَابيلَ عَنْ نَفْسِهِ بِعَـدَمِ إقدَامِهِ عَلَى قَتلِ أَخيهِ، فقَالَ تعَالَى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (المائدة).

وَجَاءَتْ لِلإِخْبَارِ عن النَّفْسِ في مَوَاضِعَ من سُورَةِ يُوسُفَ (ﷺ)؛ منها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ (يوسف)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (يوسف)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ ﴿٩٠﴾﴾ (يوسف).

وقدْ يُستَفادُ منْ ﴿أَنَا﴾ في هَذِهِ الآيَاتِ بعضُ الدَّلالَاتِ الأُخرى فوقَ الإخبارِ عن النَّفْسِ؛ كالدَّلَالَةِ عَلَى التَّعَجُّبِ واليَأسِ مِنَ الإنجابِ في حَدِيثِ زوجِ إبْرَاهِيمَ (ﷺ)، أو النَّدمِ عَلَى ما كَانَ مِنَ الذَّنْبِ في حَدِيثِ اِمرَأةِ العَزِيزِ واعتِرافِها، أَوِ الدَّلَالَةِ عَلَى العَفْوِ والتَّسَامُحِ، ومُقابَلَةِ السَّيِّئةِ بالحَسَنَةِ في حَدِيثِ هابيلَ مع قابيلَ ... إلى غيرِ ذَلِكَ منَ الدَّلالَاتِ؛ وَ تبقى هَذِهِ الدَّلالَاتُ جُزئيَّةً غيرَ مُطَّرِدةٍ، بخِلَافِ دَلَالَةِ (أَنَا) عَلَى العَظَمَةِ؛ فإنَّها الدَّلَالَةُ الأَكثرُ اطِّرَادًا؛ وَهِيَ الدَّلَالَةُ الغالِبَةُ لـ ﴿أَنَا﴾ في القُرْآنِ الكَرِيمِ، معَ مُلَاحَظَةِ تنوُّعِ هَذِهِ الدَّلَالَةِ في حدِّ ذاتِها ما بينَ العَظَمَةِ الوَاجبةِ لله تَعَالَى، والعِزَّة المَحمودَةِ، والكِبرِ المذْمُومِ؛ عَلَى ما سيَتَّضِحُ فيما يأتي.

٢/ ٤- دَلَالَةُ ﴿أَنَا﴾ عَلَى العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ:

تَتَجلَّى دَلَالَةُ ﴿أَنَا﴾ في القُرْآن الكَرِيمِ عَلَى العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، حينَ تَتَعلَّقُ بالذَّاتِ العُلْيا البَاقِيَةِ لِلمولَى (ﷻ)؛ إذْ تأتِي محمَّلةً بدَلالَاتِ العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ بما يُوجِبُ تَوْحيدَ الله، وإفرادهِ بالعِبادَةِ، وإيجابِ كلِّ صِفَاتِ الجَمَالِ والكَمَالِ لَهُ (ﷻ)؛ ولِذَا جاءَتْ جُزءًا من كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ لِتَترادفَ مع لفظ الجَلَالة في كَلِمَة التَّوْحِيدِ؛ كما نجدُ في: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأَنْبِيَاء)؛ فَدلَّتْ "أنا" عَلَى التَّعْظِيمِ المقتضِي التَّخويفَ والإِنْذَارَ، كما في قَوْلِهِ

تَعَـــالَى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (النحل: ٢)؛ فَالإِنْذَارُ معناهُ: الإعلامُ معَ التَّخْوِيفِ، ومَعْنَى الآيَـــةِ: أَنذِرُوا أَهلَ الكُفْرِ والمَعَاصِي أَنَّه لا إلهَ إلَّا أَنَا؛ أيْ: مُرُوهُم بتَوْحِيدِي مَعَ تَخويفِهِم إنْ لمْ يُقِرُّوا[1]؛ فَدَلَّتِ الآيةُ عَلَى التَّوْحِيدِ الذي هُو مُنتَهَى كَمَالِ القُـــوَّةِ العِلميَّـــةِ، وفي الوَقْتِ نَفسِهِ أَمَرتْ بالتَّقْوَى التي هيَ أقصَى كَمَالِ القُوَّةِ العَمَلِيَّـــةِ[2]، ولمَّـــا كانَتِ الآيةُ دَاعِيَةً إلَى تَعْظِيمِ المَولَى (ﷻ) وتَوْحِيدِهِ، جاءَتْ مصـــحُوبةً بالآيَـــاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عظمتهِ (ﷻ) في خَلقِ السَّماواتِ والأَرْضِ، والإِنْسَانِ والأَنْعَامِ، وماءِ السَّمَاءِ واللَّيْلِ والنَّهَارِ، والشَّمْسِ والقَمرِ، وآيَاتِهِ في البَرِّ والبَحرِ، ونِعمهِ الكَثِيـــرةِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى (النحل، من الآية ٣ إلى الآية ١٨)، وغَيرِ ذَلِكَ ممَّا يَدُلُّ عَلَى وحدانيتهِ (ﷻ) وأَنَّه لا إلهَ إلَّا هُو بدَلَالَةِ ما ذُكِرَ مِمَّا لا يُقْدَرُ عليـــهِ غيـــرهُ؛ فَهُوَ، (ﷻ)، المُوجِدُ لأصُولِ العَالَمِ، وفُرُوعِهِ عَلَى وَفقِ الحِكْمَةِ والمَصْلَحَةِ[3].

وَالمُرَادُ بهِ في قَوْلهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأَنْبِيَاء: ٢٥)، أنَّ اللهَ (ﷻ) يُخبِرُ أَنَّهُ قالَ لجَمِيعِ الأَنْبِيَـــاءِ في الوَحْيِ: أَنَّهُ لَا إِلَّا الله، قالَ قتَادةُ: لمْ يُرْسَلْ نَبِيٌّ إلَّا بالتَّوْحِيدِ، والشَّرائعُ مختلفةٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ والقُرْآنِ، وكلُّها متّفقةٌ عَلَى الإخلَاصِ والتَّوْحِيدِ[4].

وتَتَجلَّى عَظَمَةُ اللهِ، (ﷻ)، في قَوْلهِ: ﴿ أَنَا ﴾ حينَ يذَكِّرُ الأَنْبِيَاءَ أَنَّـــه شـــاهِدٌ مَعَهُم وعليهِم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ

(١) ابنُ الجَوْزِيّ، ٤٢٨/٤، الشَّوكَانِيُّ، ٢٠١/٤.
(٢) الرَّازِيّ، ١٧٦/١٩، البَيْضَاوِيّ، ٣٨٥/٣.
(٣) النّسَفِيُّ، ٢٤٩/٢، البَيْضَاوِيّ، ٣٨٥/٣.
(٤) القُرطُبيّ، ٢٨٠/١١.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران)، ومَعناهُ: وأنَا، أَيْضًا، علَى إقرارِكُم وشهاداتِكم شاهدٌ، وإنَّمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾ وإنْ كَانَ (ﷻ) يَعلمُ السِّرَّ وأَخفَى لِمَا في ذَلِكَ مِنَ الحَذَرِ مِنهُ (ﷻ)، واستِحضَارٍ لِعَظَمَتِهِ[1].

وَجَاءَتْ ﴿أَنَا﴾ بقوَّتِها وعظمتِها لتُزيلَ الشُّكوكَ، وتُحقِّقَ المَعْرِفَةَ باللهِ تَعَالَى في قَولِهِ لمُوسَى (عليه السلام): ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ (طه)، ثمَّ قالَ لهُ عقِبَ هَذهِ الآيَةِ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾(طه)، وصدَّرَها بقَولِهِ: ﴿وَأَنَا۠﴾؛ ومَعناهُ: أنَّ الاصطِفاءَ للنُّبوَّةِ والرِّسَالَةِ منهُ (ﷻ) لا غيرُهُ[2]، ففَائِدَةُ قَولِهِ: ﴿أَنَا﴾ إِخْبَارٌ عَنْ قُدرَتِهِ التي لا يَسْتَطِيعُها غَيرُهُ، كَمَا أَنَّ قَولَهُ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ معَ قَولِهِ: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ يُمَثِّلانِ مَقامَينِ عَظِيمَينِ؛ فقَولُهُ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ يفيدُ نهايةَ اللُّطْفِ والرَّحْمَةِ، وقَولُهُ: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ يُفيدُ نِهايَةَ الهَيبةِ؛ فيَحْصُلُ لَهُ منَ الأَوَّلِ نِهَايَةُ الرَّجَاءِ، ومِنَ الثَّانِي نِهايَةُ الخَوفِ[3]، واللُّطف والرَّحْمَة والرَّجاء فيه والخَوف منهُ؛ كلّها أُمُورٌ ينطوي عليها قَولُهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، ثمَّ إعادتُهُ في الآيةِ والتي قبلَها والتي بَعْدَها: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾(طه)،؛ فجاءتِ الآيةُ وما جرَى مَجرَاها مِمَّا كانتْ فيهِ ﴿أَنَا﴾ دالَّةً علَى العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ والجَلَالِ لله لتثبتَ بالأدلَّةِ والبراهينِ أحقيَّةَ الله تَعَالَى بالتَّوْحِيدِ والعِبَادَةِ، فَهُوَ الحقيقُ بالعِبَادَةِ والتَّقوَى وَهُوَ ما يُؤَكِّدهُ السِّيَاقُ القُرْآنِيُّ لِلْأَنَا في قَولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا

(١) الرَّازِيّ، ١٠٦/٨، البَيْضَاوِيّ، ٥٩/٢.
(٢) البَيْضَاوِيّ، ٤٤/٤، الشَّوكَانِيُّ، ٣٥٨/٣.
(٣) الرَّازِيّ، مَفَاتِيحُ الغَيبِ، ١٧/٢٢.

﴿ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾(الأَنْبِيَاء: ٩٢)، وقَوْلِهِ (ﷻ): ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾(المؤْمِنون: ٥٢)، فَيثبتُ في الآيتينِ ربوبيَّةُ الله (ﷻ) واِخْتِصَاصُهُ بالتَّوحيدِ دُونَ أَحَدٍ، ومَن كانَ كذَلِكَ فتَجبُ عِبادَتُهُ وتَقْواهُ(١)، وقد ذكرَ بعضُ المُفَسّرينَ أنَّ الآيةَ الثَّانِيَةَ أبلغُ في التَّخْوِيفِ والتَّحذيرِ منْ قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾وعلَّلَ بأنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ جاءَ عُقَيبَ إهلَاكِ طَوائفَ كَثِيرينَ من قومِ نُوحٍ والأُممِ الذين مِن بَعدِهِم، أمَّا في سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾(الأَنْبِيَاء)، وإنْ تقدَّمَتْ أَيْضًا قصَّةُ نُوحٍ وما قَبلَها؛ فقدْ جاءَ بعدَها ما يَدُلُّ عَلَى الإحسانِ واللُّطفِ في قصَّةِ أَيُّوب، ويُونُسَ، وزكَريا، ومَرْيَمَ؛ فناسبَ ذَلِكَ الأمرُ بالعِبَادَةِ لمَن هَذِهِ صِفتُهُ(٢).

وَمِن شَأنِ هَذَا كُلِّهِ أنْ يَجعَلَ ذَوي العُقُولِ يقفُونَ مُقِرِّينَ بالتَّوْحِيدِ ذَاكِرِينَ للهِ تَعَالَى بالتَّهليلِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" عالِمينَ ومُقِرّينَ بأنَّ الذَّاتَ الإِلَهِيَّةَ المُعبَّرَ عَنهَا بضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ ﴿ أَنَا ﴾ هيَ وَحْدَها المُستَحِقَّةُ للعِبَادَة؛ حَيثُ جاءَت ﴿ أَنَا ﴾ في هَذِهِ الآيَات لتعَظِيمِ المَولَى (ﷻ)؛ فجاءتْ مُرَادِفةً للفظِ الجَلَالةِ "الله" في كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ؛ كما في قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ: ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ وَهِيَ صيغَةٌ لا يَجُوزُ لغيرِ الله تَعَالَى أنْ يذكرَها إلَّا حِكَايَةً عنهُ (ﷻ)، وإنَّما العبدُ يَقُولُ: "لا إلهَ إلَّا الله" عَلَى النَّحْو الذي وَرَدَتْ به كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وفيها التَّصريحُ بلفظِ الجَلَالة "الله" ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ

(١) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٣١٢/٦، ٣٧٧، العمَادِيّ، ١٣٨/٦، النّسَفِيُّ، ٩٠/٣.
(٢) أَبُو حيَّان الأَنْدَلُسِيِّ، ٣٧٧/٦، الأَلُوسِيُّ، ٤١/١٨.

﴿١٩﴾ ﴾ (مُحمَّد: ١٩)، وكمَا ورَدَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ بلَفظِ الجَلَالةِ صَرِيحًا، وبلفظِ ضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ (أَنَا) وَرَدَت أَيْضًا بِلفْظِ ضَمِيرِ المُخَاطَبِ والغَائِبِ: أمَّا المُخاطَب ففِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عــن يونُس: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الأَنْبِيَاء: ٨٧)، وأمَّا الغَائِب ففي قَوْلِهِ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (آل عمران)، وتكرارُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ بهَذِهِ الصيغِ المتنوّعةِ يقطعُ الطّرِيقَ عَلَى المُعاندِ المُكابرِ، فقد ثبتتْ أُلُوهِيَة اللهِ تَعَالَى باسمهِ الأَعْلَى، وبحَدِيثهِ عَنْ ذَاتِهِ المُعبَّرِ عنها بِقَولِهِ: ﴿ أَنَا ﴾، وبحضُورِهِ عندَما خَاطَبَهُ العَبْدُ "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ"، ثُمَّ تَوْحِيده بأنْ يُخاطبَهُ العبْدُ بضَمِيرِ الغَائِبِ، وكأَنَّ العبدَ يَقُولُ: مَنْ ﴿ أَنَا ﴾ حتَّى أعلمَكَ يا ربَّ الأَرْبابِ، فأَنتَ أَعْلَى مِن جَمِيعِ المُناسَباتِ، وأَنتَ مُقدَّسُ عن علائقِ العُقُول والخَيالاتِ؛ فَلِهَذَا السبَبِ خاطبهُ العبدُ بخطابِ الغَائبينَ فَقَالَ: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1].

وَمِن شَأنِ هَذَا كلِّــهِ أنْ يُؤَكِّدَ أنَّ الآيَاتِ التي فيها قــولُ اللهِ تَعَــالَى: ﴿ أَنَا ﴾ الدَّالّ عَلَى ذاته (ﷻ) تقتضي أنَّهُ، (ﷻ)، حقيقٌ بالعِبَادَةِ والتَّقوى، يرجــوهُ العبــدُ ويَخافُهُ؛ لِأَنَّهُ قَد قَامَتِ الدَّلَائِلُ الكونيَّةُ عَلَى عظمتِــهِ ورُبوبيتِــهِ، كمَــا أنَّ ﴿ أَنَا ﴾ بدَلَالَتِهَا عَلَى الذَّاتِ العُليَا لها منَ القُوَّةِ والأَنْوارِ السَّرمديَّةِ ما يُزيلُ الشُّكوكَ عَــن عِبادِ الله تَعَالَى؛ بِحَيثُ تُحَقِّقُ لهُم المَعْرِفَةَ باللهِ (ﷻ)، وتُخْبِرُهُم بمَا تتَّصِــفُ بــه ذاتهُ العليَّةُ من صِفَاتِ الكَمَالِ والجَلَالِ والعَظَمَةِ؛ عَلَى ما سَبَقَ بَيَانُهُ فــي دَلَالَــةِ (أَنَا) عَلَى ذاتِهِ.

(١) يُرَاجَعُ، الرَّازِيّ، ١/١٢٣ .

٤/٣- دَلَالَة ﴿أَنَا﴾ عَلَى العِزَّةِ والثِّقَةِ: لا شكَّ أنَّ البونَ شاسعٌ بينَ (أَنَا) التي يتلفَّظُ بها المرءُ كِبرًا ونِفاقًا ورِياءً وسُمعةً، وبينَ "أنا" الدَّالةِ عَلَى الثِّقَةِ المبنيَّةِ عَلَى القواعدِ الشَّرعيَّةِ فـ (أَنَا) التِي عَلَى سَبِيلِ الكبرِ والعِزَّةِ في غيرِ مجالِها صَاحِبُها مَذْمُومٌ ومَأْثُومٌ، في حِينِ أَنَّ (أَنَا) التي عَلَى سَبِيل الثِّقَةِ صَاحِبُها مَأْجُورٌ فَقَدْ رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ بنِ عليٍّ أن رَجُلًا قالَ لهُ: "إنّ النَّاسَ يَزعمُونَ أنَّ فيكَ تِيهًا؛ قالَ: لَيسَ بتيهٍ، ولَكِنَّه عزَّةٌ، وتلا هَذِهِ الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾(المنافقون)،[1]، ونقَلَ الرَّازِيُّ عن بعضِ العارفينِ في تَحقيقِ هَذَا المَعْنَى: أنَّ "العِزَّة غيرُ الكِبرِ، ولا يَحلُّ للمُؤْمِنِ أن يذلَّ نفسَهُ، فالعِزَّة مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ بحقيقةِ نفسِهِ، وإكرَامُها عَنْ أَنْ يَضَعَهَا لأَقْسَامٍ عَاجِلَةٍ دُنيويَّةٍ، كَمَا أَنَّ الكِبرَ جَهْلُ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وإِنْزَالُهَا فَوقَ مَنْزِلِهَا؛ فَالعِزَّةُ تُشبهُ الكِبرَ مِن حَيثُ الصُّورَةُ، وتَختلفُ من حَيثُ الحقيقةُ؛ كاشتِباهِ التَّوَاضُعِ بالضِّعَةِ، والتَّوَاضُعُ مَحمُودٌ، والضِّعَةُ مَذمومَةٌ، والكِبرُ مَذْمومٌ، والعِزَّةُ مَحْمُودَةٌ، ولمَّا كانَتْ غيرَ مَذْمُومةٍ، وفيها مُشَاكَلَةٌ لِلْكِبْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾(الأحقاف)، وقَالَ: وفيهِ إِشَارَةٌ خَفيَّةٌ لإِثْبَاتِ العِزَّةِ بالحَقِّ، والوقُوفِ عَلَى حَدِّ التَّوَاضُعِ من غير انحِرافٍ إلى الضِّعَةِ وُقُوفًا عَلَى صِرَاطِ العِزَّة المنصُوبِ عَلَى مَتْنِ نارِ الكِبْرِ.

ونظرًا للفرْقِ الدَّقيقِ بينَ (أَنَا) التي يَقُولُها المرءُ كِبرًا؛ و(أَنَا) التي يَقُولُها المَرْءُ ثقةً بِنَفْسِهِ؛ فقد تختلطُ الأُمُورُ وتلتبسُ عَلَى النَّاسِ الأَحكَامُ، وفي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

(١) الرازيّ، ٥٤٩/٣٠، أَبُو حيَّان، ١٨٤/١٠.

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِباضٌ وإنَّمَا * رَأَوا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

مِن هُنا تتَدَاخَلُ الفَضَائِلُ والرَّذَائلُ؛ فلا يَدْرِي الإنْسَانُ عن موقْفٍ مَـا: أهُـو دَاخِلٌ فى حُدُودِ الفَضِيلَةِ أَمِ الرَّذيلَةِ؛ نظَرًا للفَوارقِ الدَّقيقةِ بَينَهُما التي لا يَلمَحُهـا إلَّا أُولُو البصَائرِ فــ (أَنَا) عندَ أهْلِ الإيمَانِ تَختلِفُ عَنْهـا عنـدَ أهـلِ الشِّـركِ والضَّلالِ؛ لأنَّ (أَنَا) عندَ الأخيرينَ تدلُّ عَلَى الكِبرِ المَذمُومِ والخُيلَاءِ المَمقُوتـةِ، وَتَدُلُّ عِندَ الأوّلينَ عَلَى العِزَّةِ النَّاتِجَةِ عنِ الإيمَانِ باللهِ (ﷻ) والثِّقَةِ بهِ؛ كما فـي قصَّة يُوسُفَ ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يوسف).

فقولُ يُوسُفَ (عليه السلام): ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ تَـدلُّ عَلَـى عـزَّةِ الإيمَانِ، والثِّقَةِ باللهِ تَعَالَى، أي: أَلَا تَرونَ أنِّي أُوفِي الكَيلَ لكُمْ إيفـاءً مُسْـتَمِرًّا، والحَالُ أَنِّي في غَايةِ الإحسانِ في إنزَالِكُم وضِيافَتِكُم وقدْ كانَ الأَمرُ كَذَلِكَ[1].

فــ ﴿ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أَنبَأَتْ عمَّا يتَّصِفُ به يُوسُفُ (عليه السلام) مـن كونهِ غايةً في الكَرَمِ والإحسَانِ؛ فَلا يُقارنُ حُسنُ ضِيافَتِهِ بِغَيرِهِ؛ فَهُـوَ خَيـرُهم، يَقُولُ أَبُو حَيَّان المُفَسّرُ: ﴿ الْمُنزِلِينَ ﴾ أي: المُضيفينَ، يعنِي: فـي قُطْـرِهِ وفـي زَمَانِهِ[2].

كمَا وَرَدَ في ذاتِ السُورَةِ قَولُ يُوسُفَ (عليه السلام): ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾(يوسف)، وقدْ حَكَى عُلَمَاءُ التّفْسِيرِ في هَذِهِ الآيةِ ثَلَاثَةَ أقوالٍ:

الأَوَّلُ: حفيظٌ لِمَا ولَّيتَنِي، عليمٌ بالمَجَاعَةِ متَى تكونُ، قالهُ أبو صالحٍ عن ابـنِ عَبَّاسٍ.

---

(١) العمَادِيّ، ٢٨٨/٤، الأَلُوسِيُّ، رُوحُ المعَانِي، ٩/١٣.

(٢) الطبري، ٢٢٥/١٣، رقم: ١٩٥٥٣، عن مُجَاهِد. وأخرجه ابن أبي حاتم فـي تَفْسِـيره، ٢١٦٤/٧، رقم: ١١٧٣٨، عن ابن عَبَّاسٍ. ويُرَاجَعُ، السُّيوطيّ، الدر المنثور، ٢٨٤/٨.

والثَّانِي: حَفِيظٌ لِمَا استَودَعتَنِي، عَلِيمٌ بهَذِهِ السِّنينَ، قالهُ الحسَنُ.

والثَّالِثُ: حَفِيظٌ للحِسَابِ، عَلِيمٌ بالألسُنِ، قاله السّديُّ، وذَلِكَ أنَّ النَّاسَ كَانُوا يَرِدُونَ عَلَى الملكِ من كلِّ نَاحِيَة فيتكلَّمونَ بلغاتٍ مُختلِفةٍ.

وأوردَ العَلَّامَةُ الخَازِنُ[1] سُؤالًا بِقَولِهِ: فإن قلتَ: كيفَ مدحَ يُوسُفُ نفسَهُ بقَولِهِ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾(يوسف) والله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾(النجم: ٣٢)؟ قلتُ: إنَّما تُكرهُ تَزكيةُ النَّفْسِ إذَا قَصدَ بهِ الرَّجُلُ التَّطَاوُلَ والتَّفاخُرَ والتَّوَسُّلَ بهِ إلَى غَيرِ مَا يَحلُّ؛ فهَذَا القَدرُ المَذمُومُ في تَزكِيَةِ النَّفْسِ.

أَمَّا إذَا قُصِدَ بتَزكِيَةِ النَّفْسِ ومَدْحِها إيصَالُ الخَيرِ والنَّفعِ للغَيرِ، فَلَا يُكرَهُ ذَلِكَ، ولا يُحَرَّمُ، بَلْ يَجبُ عَلَيهِ ذَلِكَ؛ مِثَالُهُ: أنْ يَكُونَ بَعضُ النَّاسِ عِندَهُ علْمٌ نَافِعٌ، ولَا يعرفُ بهِ؛ فإنَّهُ يَجبُ عليهِ أنْ يَقُولَ: أنَا عالِمٌ، ولمَّا كانَ المَلِكُ قدْ علمَ مِن يُوسُفَ أنَّهُ عالِمٌ بمَصَالِحِ الدِّينِ، ولمْ يعلمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بمَصَالِحِ الدُّنْيَا، نبَّهَهُ يُوسُفُ بِقَولِهِ عَلَى أنَّهُ عالِمٌ بما يحتاجُ إليهِ في مَصَالِحِ الدُّنْيَا أَيْضًا معَ كَمَالِ عِلْمِهِ بِمَصَالِحِ الدِّينِ.

وأَورَدَ العَلَّامَةُ الرَّازِيُّ أَسئلَةً أُخرَى بِقَولِهِ: فَإنْ قيلَ: لِمَ طَلَبَ يُوسُفُ الإِمَارَةَ، والنَّبِيُّ (ﷺ) قالَ لعَبدِ الرَّحمنِ بن سَمُرة: "يَا عَبْدَ الرَّحمنِ: لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ"[2]؟

وكيفَ طلبَ الأَمَّارَةَ مِن سُلطَانٍ كَافِرٍ؟ ولِمَ لَمْ يصبرْ مُدَّةً فَأَظْهَرَ الرَّغبةَ في طَلَبِ الإِمَّارَةِ؟ ولِمَ طلبَ أمرَ الخَزائِنِ في أوَّلِ الأَمْرِ، مع أنَّ هَذَا يورثُ تهمةً؟

---

(١) الخَازِنُ، ٥٣٦/٢.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ، ١٢٣/١٣، ١٢٤، كِتَاب الأَحكامِ، باب: مَنْ لمْ يَسأَلِ الإمارةَ (٧١٤٦)، ومُسْلِم، ١٢٧٣/٣، ١٢٧٤، كِتَاب الإيمَان، باب: ندْب مَن حلفَ يَمِينًا، (١٩– ١٦٥٢).

وكيفَ مدَحَ نَفسهُ بقَولِهِ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾(يوسُف: ٥٥)؟ معَ أنَّهُ تعَالَى قالَ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾(النَّجم) ولِمَ لَمْ يقُلْ: "إنْ شاءَ الله تَعالَى"؛ لقَوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤)؟.

فالجَوابُ: أنَّ الأَصْلَ في جَوابِ هَذِهِ المسألةِ: أَنَّ التَّصرُّفَ في أُمُورِ الخَلقِ كانَ وَاجبًا عَليهِ، فَجَازَ لهُ أنْ يتُوْصَّلَ إليهِ بأيِّ طَرِيقٍ كَانَ[1].

ثمَّ بيَّنَ الرَّازِيُّ، (رَحِمَهُ اللَّهُ)، أنَّهُ إنَّما قالَ بأنَّ التَّصرُّفَ في أُمُورِ الخلْقِ كانَ واجبًا عَلَى يُوسُف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لوُجُوهٍ:

الأَوَّل: أنَّهُ كانَ رَسُولًا حقًّا منَ الله (عَزَّ وَجَلَّ) إلَى الخَلْقِ، والرَّسُولُ تَجِبُ عَلَيهِ مَصَالِحُ الأُمَّةِ بقَدرِ الإمكَانِ،

والثَّانِي: أنَّه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) علمَ بالوحْي أنَّهُ سَيحْصُلُ القَحْطُ والضِّيقُ الشَّديدُ، الذي رُبَّما أَفْضَى إلَى هلاكِ الخلَقِ، فَلَعلَّهُ تَعَالَى أَمرَهُ بأنْ يدبِّرَ في ذَلِكَ الوقتَ، ويَأْتِي بطَرِيقٍ في آجلهِ، يَقِلُّ ضَرَرُ ذَلِكَ القَحْطِ في حقِّ الخلَقِ.

والثَّالث: أنَّ السَّعيَ في إيصَالِ النَّفعِ إلَى المُستضْعَفينَ، ودَفعِ الضَّررِ عَنهُم أَمْرٌ مُسْتَحْسَنٌ في العُقُولِ[2].

وبَعْدَ عرضِ هَذِهِ الوُجُوهِ يَقُولُ الرَّازِيُّ: "وإذَا ثَبَتَ هَذَا، فنقولُ: إنَّه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانَ مُكَلَّفًا برِعَايَةِ المَصَالِحِ مِن هَذِهِ الوُجُوهِ، وما كَانَ يُمْكِنُهُ رِعَايَتُها إلَّا بِهَذَا الطَّرِيقِ، وما لا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلَّا بهِ، فَهُوَ وَاجِبٌ، فكَانَ هَذَا الطَّرِيقُ واجبًا، ولمَّا كانَ وَاجبًا، سَقَطَتِ الأَسئلَةُ بالكُلِّيَّةِ. وأمَّا تَرْكُ الاستِثْناءِ، فَقَالَ الواحديُّ: "كان ذَلِكَ من خَطيئةٍ

---

(١) الرَّازِيُّ، ١٨/٤٧٣.

(٢) السَّابِقُ.

أَوجَبتْ عُقُوبَةً؛ وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى، أَخَّرَ عَنْهُ حُصُولَ ذَلِكَ المَقْصُودِ سَنَةً"(١)، ولَعَلّ الواحِدِيُّ لمْ يكُنْ مُوفقًا في الصِّيَاغَةِ حِينَ وَصَفَ فِعْلَ يُوسُفَ (عليه السلام) بالخطِيئَةِ المُستوجِبَةِ العُقوبَةَ!

وَقَالَ ابنُ الخَطِيب: "لعلَّ السَبَبَ فيهِ أَنَّهُ لو ذكرَ هَذَا الاستثناءَ، لاعتقدَ الملِكُ فيه أَنَّه ذكرهُ لعلمهِ بأَنَّهُ لا قدرةَ لهُ عَلَى ضبطِ هَذِهِ المَصْلَحَةِ كما يَنْبغِي؛ فلأَجلِ هَذَا المَعْنَى تركَ الاستِثناءَ"(٢).

وأمَّا قَوْلُهُ: لِمَ مَدحَ نَفسَهُ؟ فَجوابُهُ مِن وُجُوهٍ: **الأَوَّلُ:** لا نُسلِّمُ أَنَّهُ مدحَ نفسَهُ، بل بيَّنَ كونَهُ موصُوفًا بهاتينِ الصِّفَتَينِ الوافيتينِ بحصولِ هَذَا المطْلوبِ، فاحتاجَ إلى ذكْرِ هَذَا الوَصفِ؛ لأنَّ الملكَ، وإنْ علمَ كَمَالَهُ في علومِ الدِّينِ فَما كانَ عالمًا بأَنَّهُ يَفِي بهَذَا الأَمرِ، ثمَّ نقُولُ: هبْ أَنَّه مَدحَ نفسَهُ، إلاَّ أنَّ مدحَ النَّفْسِ لا يَكُونُ مَذمُومًا؛ إلَّا إذا قَصدَ بهِ الرَّجلُ التَّطَاوُلَ، والتَّفاخُرَ، والتَّوَصُّلَ إلى ما لَا يَحِلُّ، وأمَّا عَلَى هَذَا الوجْهِ، فلَا نُسلِّمُ أَنَّهُ يحرمُ. والمُرَادُ منْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ**﴾(النجم)؛ أي تَزْكِيَةَ النَّفْسِ، وَهُوَ يَعلَمُ كَونَها غَيْرَ زَكِيَّةٍ؛ ويَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعدَهُ: ﴿**هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢**﴾ (النجم).

أمَّا إذَا كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ صَادِقٌ، فَهُوَ غيرُ مَمنُوعٍ منهُ، واللهُ أَعلَمُ، وأمَّا القَولُ: ما الفائدَةُ في وَصْفِ نَفسِهِ بِأَنَّهُ حَفِيظٌ عَلِيمٌ؟. قُلنَا: إنَّه جَارٍ مَجْرَى أَنْ يَقُولَ: حَفِيظٌ بجَمِيعِ الوُجُوهِ التي مِنْها تُمكِّنُ الرَّجُلَ منْ تَحْصِيلِ المَالِ، وعَلِيمٌ بالجِهَاتِ التي تَصلُحُ لأنْ يَصرِفَ المالَ إِلَيهَا، أَوْ حَفِيظٌ للخَزائنِ، وعَلِيمٌ بوُجُوهِ مَصَالِحِهَا، أَو كَاتِبٌ حَاسِبٌ، أَو حَفِيظٌ لِمَا اسْتَودَعْتَنِي، عَلِيمٌ بِمَا وَلَّيتَنِي، أَو حَفِيظٌ لِلحِسَابِ، عَلِيمٌ بِالأَلْسُنِ، أَعْلَمُ لُغَةَ مَنْ يَأْتِينِي.

---

(١) الرَّازيُّ، ١٨/٤٧٣.

(٢) السَّابِقُ، ٨ /٤٧٢.

ومِن هُنَا يَظْهَرُ أنَّ ﴿ أَنَا ﴾ الوَاثِقَةَ باللهِ تَعَالَى، العَزِيزةَ بالإِيمَانِ بِـهِ، السَّـاعيَةَ إلى صلاحِ الخَلقِ؛ إرْضاءً للخَالِقِ؛ لا تَدْخُلُ في إطارِ المَذْمُومِ مِن تزكيةِ الـنَّفْسِ التي نهَى اللهُ، (ﷻ)، عنها في كِتَابهِ الكَرِيمِ؛ فَقَـالَ: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾ (النجم)، أي: لا تَمدحُوها، ولا تُثْنُوا علَيهَا، فإنَّهُ أَبْعَـدُ عَـنِ الرِّيَـاءِ، وأقربَ إلى الخُشُوعِ[(١)].

وقد بيَّنَ القُرْطُبِيُّ، (رَحِمَهُ اللَّهُ)، ذَلِكَ عندَ تَفْسِيرهِ لقَوْلهِ تعَـالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ﴾ (النساء)؛ حَيثُ قَـالَ: "هَـذِهِ الآيةُ وقَوْلهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾ (النجم) يقْتَضِي الغَضَّ مِن المُزكِّي لنَفسِهِ بلِسَانِهِ، والإعلَامَ بأنَّ الزَّاكِيَ المُزكِّي مَن حسُنتْ أفعالُهُ، وزكَّاهُ الله (ﷻ) فلَا عِبرةَ بتزكيَةِ الإنْسَانِ نفسَهُ، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ إيَّاهُ.

وفي صَحيحِ مُسْلِمٍ عن مُحَمَّدِ بنِ عَمروِ بنِ عطاءٍ قالَ: سَمَّيتُ ابنَتِـي بَـرَّةَ؛ فَقَالَتْ لِي زَينبُ بِنتُ أبي سلَمَةَ: إنَّ رَسُولَ الله (ﷺ) نَهَى عَن هَذَا الاسمِ، وسَمّيت بَرَّة، فَقَالَ رَسُول الله (ﷺ): "لا تُزكُّوا أنفسَكُم اللهُ أعلَمُ بِأهلِ البِرِّ مِنكُم! فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيها؟ فَقَالَ: سمّوها زَينَبَ"[(٢)].

يَقُولُ القُرْطُبِيُّ، (رَحِمَهُ اللَّهُ): "فقدْ دلَّ الكِتَابُ والسُّنَّةُ عَلَى المنـعِ مِـن تزكيَـةِ الإنْسَانِ نفسَهُ، ويجري هَذَا المَجْرَى ما قد كثرَ في هَذِهِ الـدِّيارِ المِصـرِيَّةِ مِـن نَعتِهِم أنفسَهمُ بالنُّعوتِ التي تَقتضِي التَّزكيةَ، كزكِيِّ الدِّينِ، ومُحيي الـدِّينِ، ومـا أَشبهَ ذَلِكَ، لكنْ لمَّا كثُرتْ قَبَائحُ المُسمّينَ بهَذِهِ الأَسْمَاءِ، ظَهرَ تَخلُّفَ هَذِهِ النُّعوتِ عَن أَصْلِها؛ فَصَارتْ لا تُفِيدُ شَيئًا[(٣)].

---

(١) يُرَاجَعُ، القرطبِيُّ، ١١٠/١٧، ابنُ كَثِيرٍ، ٤٦٢/٧ .

(٢) مُسلِم، ١٦٦٨/٣، كِتَاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما، ١٨، ٢١٤٢/١٩.

(٣) القُرطُبيّ، /٢٤٦.

وكمَا نَهَى الشَّارعُ الحَكِيمُ عن تزكيةِ النَّفْسِ، نَهَى أَيْضًا عنْ تزكيَةِ غيرِنا ومدحِهِ، ففي البُخاريِّ من حَدِيثِ أبي بكرَةَ أنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عندَ النَّبيّ (ﷺ) فَأَثْنى عَليهِ رجلٌ خيرًا، فَقَالَ النَّبيّ (ﷺ): "وَيْحَكَ، قَطعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، يَقُولُهُ مِرارًا، إنْ كانَ أحدُكُم مَادِحًا لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحسَبُ كَذَا وكَذَا إنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وحَسيبُهُ اللهُ، ولَا يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحدًا"[1]؛ فَنَهَى (ﷺ) أنْ يفرطَ الرَّجلُ في مدحِ الرَّجلِ بما ليسَ فيهِ فيدخلهُ في ذَلِكَ الإعجابِ والكِبرِ، ويظنّ أنَّه في الحقيقَةِ بتلكَ المَنزلةِ؛ فَيحملهُ ذَلِكَ عَلَى تضييعِ العملِ، وتركِ الازديادِ منَ الفَضْلِ؛ ولِذَلِكَ قالَ (ﷺ): "وَيحْكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ"، وفي الحَدِيثِ الآخرِ (قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ)[2] حينَ وَصَفُوهُ بِمَا لَيسَ فِيهِ.

وعَلَى هَذَا تَأَوَّلَ العُلَمَاءُ قَوْلَهُ (ﷺ): "احثُوا التُّرابَ في وُجُوهِ المَدَّاحينَ"[3]، أنَّ المُرَادَ بهِ المدَّاحُونَ النَّاسَ في وُجُوهِهِم بالبَاطِلِ، وبِمَا ليسَ فِيهِم، حتَّى يَجعلُوا ذَلِكَ بضاعةً، يَستأْكِلُونَ بهِ المَمدُوحَ، ويَفتِنُونَهُ، فأمَّا مدحُ الرَّجُلِ بما فيهِ منَ الفِعلِ الحَسَنِ فَالأمرُ محمودٌ؛ لِيَكُونَ منهُ تَرْغِيبًا لهُ في أمثالهِ وتَحريضًا للنَّاسِ عَلَى الاقْتِدَاءِ بهِ في أَشباهِهِ فَليسَ ذَلِكَ مَذْمُومًا.

وكلُّ هَذَا رَاجعٌ إلى النِّيَّاتِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ (البقرة)، وقد مُدِحَ (ﷺ) في الشِّعْرِ والخُطَبِ والمُخَاطَبَةِ ولمْ يُحْثَ في وُجُوهِ المَدَّاحينَ التُّرابُ، ولا أَمرَ بذَلِكَ كقَولِ أبي طَالِبٍ:

---

(١) أخرجه البُخاريّ، ٤٩١/١٠، كِتَاب الأدب، باب: ما يكره من التمادح، ٦٠٦١، ومُسْلِم، ٢٢٩٦/٤، كِتَاب الزُّهْد، باب: النهي عن المدح، ٦٥-٣٠٠٠.

(٢) أخرجه البُخاريّ، ٣٤٦/٥، كِتَاب الشهادات، باب: ما يكره من الاطناب في المدح، ٢٦٦٣، من حَدِيث أبي موسي الأشعري.

(٣) مُسْلِم، صحيح مُسْلِم، ٢٢٩٧/٤، كِتَاب الزُّهْد والرقائق، باب: النهي عن المدح رقم ٣٠٠٢/٦٨:.

وأَبْيَضُ يُسْتَسقَى الغَمَامُ بوجهِهِ * ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَرَامِلِ(١)

وكَذَلِكَ مدحَ حسَّانُ بنُ ثَابتٍ، وكَعبُ بنُ زُهيرٍ الرَّسُولَ (ﷺ) ولمْ يَنهَاهُمَا عَنْ ذَلِكَ، ومَدَحَ هُوَ (عليه السلام) أَيْضًا أَصحابَهُ؛ فَقَالَ: "إنَّكم لتقلُّونَ عِندَ الطَّمعِ وتَكثُرُونَ عِندَ الفَزَعِ"(٢).

وأمَّا قَوْلهُ (ﷺ): "لَا تُطرُونِي؛ كَمَا أَطْرَتِ النَّصارَى عيسَى ابنِ مَرْيَمَ وقُولُوا: عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ"(٣)؛ فَمَعنَاهُ: لَا تَصِفُونِي بِمَا لَيسَ فِيَّ مِنَ الصِّفَاتِ، تَلتمِسُونَ بِذَلِكَ مَدْحِي، كَمَا وَصَفَتِ النَّصارَى عِيسَى بمَا لمْ يَكُنْ فِيهِ، فَنَسبُوهُ إلى أنَّهُ ابنُ اللهِ؛ فكَفَرُوا بذَلِكَ، وضَلُّوا؛ وهُوَ ما يَقتضِي أنَّ مَن رفعَ أحدًا فوقَ حدِّهِ، وتَجاوَزَ مِقدَارَهُ بِمَا لَيسَ فيهِ فَهُوَ مُعتدٍ أثيمٌ؛ لأنَّ ذَلِكَ لوْ جَازَ في أَحَدٍ لَكَانَ أَوْلَى الخَلْقِ بهِ رَسُولُ اللهِ (ﷺ).

ومن ذَلِكَ يظهرُ أَنَّهُ يَجبُ عَلَى المُسْلِمِ أنْ يَلتَمسَ الوَسَطيَّةَ في كُلِّ الأُمُورِ حتَّى لا يبلغَ مَبلغًا مَرفُوضًا، فكلُّ أمرٍ جاوزَ حدَّهُ، فقدْ تعدَّاهُ إلى غَيرِهِ، والأَسلمُ الثَّباتُ عَلَى الحقِّ المَنْصُوصِ عَلَيهِ.

وَيُمْكِنُ القَولُ، في ضَوْءِ ما سَبقَ أنَّ ﴿أَنَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى العِزَّةِ والثِّقَةِ؛ كـ(أَنْتَ) المَمدوحَةِ بما فيها من وُجُوهِ الخَيرِ؛ مِن أَجلِ التَّرْغِيبِ فيمَا يُرضِي ربَّ العِزَّةِ (ﷻ) من الالتزامِ بالخِلَالِ الكَرِيمَةِ، والأَفعالِ الحَمِيدَةِ.

---

(١) البيت لأبي طالبٍ؛ كما عند البغداديّ، /٦٧، وابن مَنْظُورٍ، ٩٤/١١، وابن هشام، ١٣٥/١، ١٣٦.

(٢) أخرجه العسكريّ في: الأمثال، كما في: الكنز، ٣٧٩٥١، قال الإمام الخطَّابيّ (رحمه الله) في غريب الحَديث، ٦٨٢/١ في حَدِيث النَّبيّ أَنَّهُ كان إذا أشرفَ عَلَى بني عبد الأشهل قالَ: واللهِ ما علمت أَنَّكُم لتكثرونَ عند الفزع وتقلُّون عند الطَّمع، يرويه الواقدي عن ابن أبي حبيبة) أ.هـ. وسندهُ ضَعِيفٌ لضعفِ الواقدِيّ.

(٣) أخرجه البُخارِيّ، ٥٥١/٦، كِتَاب الأَنْبِيَاء، حَدِيث رقم: ٣٤٤٥.

وَصْلاحُ النِّيةِ وفَسَادُها وأمنُ الفِتنةِ في الدِّينِ هيَ الفيصلُ في ذَلكَ؛ فمتى صلحتِ النِّيَّةُ، وأُمِنَتِ الفِتنةُ فلَا ضَيرَ فِي ﴿أَنَا﴾الواثقَةِ، ولَا (أَنْتَ) المَمدُوحةِ، وإلَّا كانَ المدحُ مَنهيًّا عَنْهُ، وخَرَجَتْ (أَنَا) عنْ دَلَالَةِ الثِّقَةِ والعِزَّةِ إلى دَلَالَةِ الكِبرِ والاختيالِ المَمقوتِ؛ عَلَى ما يَتَّضِحُ فيمَا يَأْتِي:

٤/٤– دَلَالَةُ ﴿أَنَا﴾عَلَى الكِبْرِ:

٤/٤/١– الكِبر في اللُّغَةِ والاصطلاح: أَمَّا في اللُّغةِ فهو مُعظَمُ الشَّيءِ، والإثمُ الكَبيرُ، والرِّفعةُ في الشَّرفِ، والعَظَمَةُ، والتَّجبُّرُ، كالكِبْرِيَاءِ[١].ويُقَال: كَبُرَ (بالضَّمِّ)؛ أيْ عَظُمَ؛ فَهُوَ كَبيرٌ، والاستِكبارُ: الامتِناعُ عنْ قبولِ الحَقِّ، مُعاندَةً وتَكبُّرًا[٢].والتَّكبُّرُ: التَّعاظُم[٣]، والكِبَرْ: منَ الكَبيرةِ؛ كالخَطأَ منَ الخَطيئةِ، وتَكبَّرَ مِنَ الكِبرِ[٤]، وكابرهُ عَلَى حقِّهِ: جاحَدهُ وغالبَهُ[٥].والكِبْرِيَاءُ: العَظَمَةُ والتَّرفُّعُ عَنِ الانقِيادِ[٦].

وبناءً عَلَى هَذَا يُمْكِنُ تَعريفُ الكِبرِ في اللُّغَةِ بأنَّهُ استِعظَامُ النَّفْسِ، ورُؤْيَةُ قَدْرِها فَوقَ قَدرِ الآخَرِينَ، ومُوجبُهُ الحَقِيقِيُّ هُوَ العُجْبُ وَحْدَهُ[٧].

وأمَّا في الاصطلَاحِ فالكبرُ هُو: بَطَرُ[٨] الحَقِّ وغَمْطُ[٩] النَّاسِ[١٠]؛ وهَذَا هُو التَّعريفُ النَّبَوِيُّ للْكِبْرِ؛ كَمَا جاءَ في قَوْلِهِ (ﷺ): "لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ

(١) الفيروزآبادِيّ، ٤٢٢.
(٢) ابن منظورٍ، ١٢٦.
(٣) الجوهريّ، ٧٧٩/٢.
(٤) الزَّبِيدِيُّ، ٤٣٤/٧.
(٥) السَّابِقُ.
(٦) يُرَاجَعُ، الرَّاغِب، ٦٩٨.
(٧) ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيّ، ١٢٠.
(٨) بطر الحق: دفعه وردَّه.
(٩) غمط النَّاس: احتقارُهم وازدراؤُهم.
(١٠) مُسْلِم، صحيح مُسْلِم، ٩٣/١، كِتَاب الإِيمَان، باب: تحريم الكبر وبيانه، رقم: ١٤٧.

مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ"، فَقَالَ رَجلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحبُّ أن يَكُونَ ثوبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنًا. فَقَالَ (ﷺ): "إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ"(١). وَقِيلَ: الكِبْرُ أَنْ يعتَقِدَ الإِنْسَانُ نفسَهُ خيرًا منَ الآخَرِ، كَمَا أَنَّ الضِّعةَ أنْ يرى نفسَهُ أقلَّ منَ الآخَرِ، في مكانٍ يتعرَّض فيه للتَّحْقِيرِ، وإضَاعَةِ الحَقِّ بذَلِكَ، والتَّوَاضُعُ وَسطٌ بينَ الحدَّينِ(٢).

وَقِيلَ: الكِبْرُ أَنْ يَعتَقِدَ الإِنْسَانُ نفسَهُ أَعْلَى دونَ حقٍّ، ولا استِحقاقٍ(٣).

٤/٤/٢- أَنوَاعُ الكِبْرِ:

الكِبْرُ الصَّادِرُ عَنِ الإِنْسَانِ مُتنوِّعٌ بِحَسَبِ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ القُرْآنِيَّةُ، وخُلَاصَةُ دَلَالَاتِ الآيَاتِ التي تَحَدَّثتْ عَنْ كِبْرِ الإِنْسَانِ أَوْجَزَتْ كِبرَهُ في ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، نُلَاحِظُ أَنَّها تَتَولَّدُ عَنْ بَعضِهَا، وهَذَا طَبْعُ المَعْصِيَةِ التي تَجُرُّ إلى مَعْصِيَةٍ مِثْلِهَا؛ فالكِبرُ من الإِنْسَانِ قد يَكُونُ عَلَى اللهِ (ﷻ)؛ كَمَا كَانَ حَالُ النَّمرُودِ وفِرْعَونَ، أو عَلَى الرُّسُلِ؛ كَمَا كَانَ حَالُ مَن يَقُولونَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأَنْعام: ٥٣)، وقدْ يَكُونُ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بأَنْ يَستعظِمَ نفْسَهُ، ويَستَصْغِرَ غَيرَهُ، فإذَا سَمِعَ الحَقَّ مِنْ عَبدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ استَنْكَفَ من قبولِهِ واشْمَأَزَّ بِجَحْدِهِ(٤) فهَذِهِ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ للكِبْرِ، دلَّتْ عَلَيهَا آيَاتُ القُرْآنِ الكَرِيمِ، التي يُمْكِن بَيَانُها عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

٤/٤/٣- الكِبْرُ عَلَى اللهِ تَعَالَى: ومِنْ هَوَانِ الإِنسَانِ المُتَكَبِّرِ الكِبْرُ عَلَى اللهِ (ﷻ) منَ الإِنْسَانِ المُتَكَبِّرِ يتَّخِذُ صُورًا مُختلفةً؛ عَلَى النَّحْوِ الآتي:

---

(١) أخرجهُ أبو عوانة الإسفراييني، ٣١/١ .

(٢) التّهانويّ، ١٣٥٨/٢.

(٣) السَّابِقُ.

(١) الكاشانيّ، ٨٧.

١/٣/٤/٤- إِنْكَارُ أُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى ورُبُوبيَّتِهِ: يَدُلّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(النحل: ٢٢). قَالَ الطَّبَرِيُّ: "وهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عَنْ إِفْرَادِ اللهِ بالأُلُوهِيَّةِ والإقرارِ لهُ بالوَحْدَانِيَّةِ، اتّباعًا منهم لِمَا مَضَى عَلَيهِ أَسلَافُهُم منَ الشِّركِ باللهِ"(١). والفاء في {فَٱلَّذِينَ} للإيذانِ بأنَّ إصرارَهُم عَلَى الإنْكَارِ واستمرَارَهم عَلَى الاستِكبارِ وقعَ موقعَ النَّتيجَةِ للدَّلَائلِ الظَّاهِرةِ والبرَاهينِ القَاطِعَةِ(٢)، وهَذَا دَليلٌ وَاضِحٌ عَلَى حُمقِهِم وغَبَائِهِم؛ لأنَّ الأَصْلَ أنْ تكونَ نتَائجُ البَراهِينِ والأدلَّةِ إيمَانًا لا استِكبَارًا، وانقِيَادًا لا إعْرَاضًا، ولَكِنَّهم بَعدُوا عَنِ الحَقِّ في حَماقَةٍ وجَهْلٍ؛ فَتنَكَّرُوا لعِبَادَةِ اللهِ (ﷻ)، وأَعرَضُوا عنها؛ واتَّصَفُوا بالاستِكبارِ والغُرُورِ، وابتَعدُوا عن الحقِّ والخُروجِ عن دواعِي المنطِقِ(٣) فكانَ ذَلِكَ مُوجبًا لأنْ يعذِّبَهم اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الصافات: ٣٥) فاستِكبَارُهُم عن اتِّباعِ اللهِ أوردَهُم في عذابِهِ.

٢/٣/٤/٤- التَّكذيبُ بآيَاتِ اللهِ تَعالَى: شَأنُ مَن طَبْعُهُ الكِبْرُ؛ إذْ يحملُهُ عَلَى عَدمِ الاعترافِ بآيَاتِ اللهِ والإذعانِ لَهَا؛ عَلَى نَحوِ ما فَعلَ مَن كَذَّبوا بالقُرْآنِ الكَرِيمِ، وادَّعُوا أنَّه سِحرٌ يُؤثَرُ، وإنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، بعدَ أنْ أيقنَتْ قُلُوبُهم وعُقُولُهم عِندَ سَمَاعِهِ أنَّهُ ليسَ بالشِّعْرِ ولا النَّثْرِ، ولا بِقولِ كاهِنٍ، ولَكِنْ حَمَلَهُم عَلَى إنْكَارِهِ استِكبَارُهُم، وإدْبارُهم عنِ الله تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (المدثر: ٢٣-٢٥). وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ

(٢) الطَّبَرِيُّ، ١٩٧/١٤.
(٣) الأَلُوسِيُّ، ١٢١/١٤.
(١) وهبة الزّحيليّ، ١٢٥١/٢، ١٢٥٢.

﴿مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(لقمان: ٧) وهَذَا الكِبْرُ لا يقتصرُ عَلَى قُريشٍ وَحدَها أو عَلَى المُشْرِكينَ مِن حَوْلِهِم أَو مِمَّنْ جَاءَ مَن بَعدَهُم، وإنَّما نَرى هَذِهِ الأيَّام مِن المُسْلِمين مَن يستهزئونَ بالقُرْآنِ والسُّنَّةِ، ويَشتمونَ كُلَّ مَن يذكّرُهم، استكبارًا وعِنَادًا.

٤/٤/٣/٣- الاشتِرَاطُ عَلَى اللهِ تَعَالَى:

مِن صُورِ الكِبْرِ عَلَى اللهِ تَعَالَى أنْ يَشترطَ العَبْدُ عَلَى ربِّهِ، ويَقْتَرِحَ عليهِ ما يُريدُ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١)؛ فهذِهِ إملاءاتٌ يُريدُ الكافِرُونَ إملَاءَها عَلَى ربِّهم تكبُّرًا؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أنَّهُم آبِقُونَ لا يُقَدِّرونَ ما هُم فيهِ مِن خَيرٍ وعَافيةٍ، فمنهُم مَنْ يُطَالِبُ بنزُولِ مَلَائكَةٍ منَ السَّمَاءِ، ومَنْ يُطَالِبُ بأنْ تكُونَ لهُ جبالُ مكَّةَ ذَهَبًا وفِضَّةً، وأَنْ تُفَجَّرَ وِديانُها لَهُ أَنهَارًا؛ وهمْ لمْ يَطلُبُوا هَذَا إلَّا استِكبارًا عَنِ الحقِّ الوَاضِحِ، ولمْ يَجْسرُوا عَلَى هَذَا القَولِ إلَّا لبُلُوغِهِم غايةَ الاستِكْبارِ(١).

وَرَدُّ الحَقِّ لا يَكُونُ إلَّا مِنَ المُتَكَبِّرينَ، فكلُّ مَن ردَّ الحقَّ فَهُوَ مُستكبِرٌ عنهُ، بحسبِ ما وردَ عَنِ الحَقِّ (ﷻ)؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ فرضَ عَلَى العبادِ الخُضوعَ للحقِّ الذي أَرْسلَ بهِ رُسلُهَ وأَنزلَ بهِ كُتُبَهُ(٢)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٥٦﴾ (غافر: ٥٦).

٤/٤/٤- الكِبْرُ عَلَى الرُّسُلِ: إذَا كَانَ المستكبرونَ منْ عِبادِ اللهِ تَعَالَى قَدْ تَكبَّرُوا منْ هَوانِهِمْ وغَبَائِهِم عَلَى اللهِ (ﷻ) وَهُوَ خَالِقهُم وهُمْ خَلْقُهُ، فإنَّ حَالَهُم مَعَ

(١) يُرَاجَعُ، سَعِيد حوَّى، ٣٨٥٣/٧.

(٣) السَّعْديُّ، ١٦٥.

الأَنْبِيَاءِ، ومَعَ رُسلِ الله الذينَ هُم بشرٌ مثلُهم، أشدُّ لا مَحَالةَ؛ لِذَا لمْ يَكُفّ الكُفَّارُ عَنِ التَّعالي والشُّعورِ بالعَظَمَةِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ عليهِم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ؛ فَمَا سَلِمَ نبيٌّ مِن هَذَا النَّوعِ منَ المُتَكَبِّرِينَ، وتَعالِيهِم وتَعَاظُمِهم، ويَتَمَثَّلُ هذَا النَّوعُ مِنَ الكِبْرِ فيما يَأْتِي:

١/٤/٤/٤- **التَّكذِيبُ بالرِّسَالَةِ والتَّشكِيكُ فيها:** ومُصَارَحَةُ الأَنْبِيَاءِ بِعَدَمِ الإِيمَانِ بما أَتَوا بِهِ؛ كَمَا يَتَّضِحُ مَثَلًا مِن قِصَّةِ نَبيّ الله صَالِحٍ (عليه السلام) حِينَ شَكَّكَ قَومُهُ فِي رِسَالَتِهِ، وكَذَّبُوا نُبوَّتَهُ، وقَالُوا لمَن آمَنَ: لَو كَانَ صَالحٌ رَسُولًا؛ كَمَا تَزعُمُونَ؛ فَلَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، ولنُكَذِّبنَّ بِرِسَالَتِهِ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأعرافِ)

٢/٤/٤/٤- **طَرْدُ المُؤْمِنِينَ وَفِتْنَتُهُم:** يَسْعَى المُتَكَبِّرُونَ دَائمًا إِلَى فِتْنَةِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِدِينِهِ ومُحَاوَلَةِ رَدِّ هَؤُلَاءِ المُؤْمِنِينَ إِلَى جَاهِلِيَّتِهم، ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا حَدَثَ مَعَ نَبيِّ الله شُعَيب (عليه السلام) حِينَ وُجِّهَ إِلَيهِ إِنْذَارٌ وتَهْدِيدٌ مِمَّنْ اسْتَكْبَرَ مِنْ قَومِهِ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾(الأعرافِ) وظلَّ هَذَا الطَّبعُ الإِنْسَانيُّ الذي آذى الأَنْبِيَاءَ والرُّسُلَ يُطَارِدُ كُلَّ صَالِحٍ وكُلَّ دَاعِيةٍ إِلَى الله إِلَى يَومِنَا هَذَا، وسيَبقَى إِلى يَومِ القيامَةِ.

وتَأتِي (أَنَا) الفِرْعُونيَّةُ مِثالًا وَاضِحًا عَلَى هَذَا النَّوعِ والنَّوعِ الذي قبلَهُ مِنَ التَّكبُّرِ؛ مُمثِّلًا، في الاشتراطِ عَلَى الله تَعَالَى، وإِنْكَارِ أُلُوهِيَّتِهِ: كمَا يَدُلّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ

مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف)

٣/٤/٤/٤- الكِبْرُ عَلَى الخَلْقِ: لا يَسلَمُ منَ الكِبْرِ عَلَى الخلقِ إلَّا مَن زكَّا نفسَهُ بمنهَجِ اللهِ وعرفَ نفسَهُ بِعبوديَّتِهِ لربِّهِ. والكِبْرُ عَلَى الخَلقِ هُو مَنبعُ الظُّلْمِ والبَغْيِ والعُدوانِ في الأَرْضِ بينَ الخلقِ ومَنْشَأُ هَذَا الكِبْرِ حُبُّ التَّميُّزِ والاستِعلاءِ عَلَى الآخرينَ، وإِعجابُ المَرءِ بِنَفْسِهِ، ونِسْيانُهُ حَقيقةَ أَمرِهِ؛ ففِرْعَونُ قَتَلَ بَنِي إسرائيلَ واستعبدَهم وأذلَّهم؛ ليبقَى هو الأَعْلَى في مِصرَ، وإليهِ أمرُها لا يُنازعُهُ معارضٌ، ظانًّا الخلودَ في الدُّنْيَا، مُعْتَقِدًا عدمَ رجُوعهِ هوَ وجُنُوده إلى اللهِ تَعَالَى ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (القصص)

والكِبْرُ عَلَى الخلقِ يجرُّ المُتَكَبِّرَ إلى الكِبْرِ عَلَى الخَالِقِ لأنَّ تعوَّدَهُ عَلَى الكِبْرِ ينمُو إلى أنَّ يتكبَّرَ عَلَى كُلِّ شيءٍ حَتَّى يَتَكبَّرَ عَلَى اللهِ، (ﷻ)؛ وهَذَا ما تدُلُّ عليهِ (أَنَا) المُتَكَبِّرةُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ أَلَا تَرَى أنَّ إِبْلِيسَ لمَّا تكبَّرَ عَلَى آدمَ وحسَدهُ بِقَولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الأعرافِ) جرَّهُ ذَلِكَ إلى التَّكبُّرِ عَلَى اللهِ لمُخالفةِ أَمرِهِ فهلكَ هلَاكًا مُؤبَّدًا[١].

وتُؤكِّدُ نِسْبَةُ الخَيريَّةِ إِلَى (أَنَا) في هَذِهِ الآيةِ الكَريمَةِ أنَّ حُبَّ التَّميُّزِ عن الآخرينَ هُو السَّبَبُ الرَّئيسُ للكبْرِ؛ فلا يَدفعُ المَرءَ إِلَى الكِبرِ غَالبًا إلَّا حبُّ التَّميُّزِ، أو الرَّغبةُ في عدمِ الخُضُوعِ لأَحدٍ، أو مُحَاوَلَةُ إخفاءِ نَقصٍ في ذاتِهِ؛

(١) يُرَاجَعُ، ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيّ، ١١٩.

وكُلُّها مهلكةٌ[1]؛ ولِذَلِكَ فإنَّ الجماعَةَ الكَرِيمَةَ التي يقيمُها الإِسْلَامُ بهَدْيِ القُرْآن الكَرِيم تنأَى بِنَفْسِها عن (أَنَا) المُتَكَبِّرَةِ؛ لِأَنَّهُا جَماعَةٌ لهَا أدَبٌ رَفِيعٌ، ولكُلِّ فردٍ فيهَا كَرامتُهُ التي لا تمسُّ وَهِيَ مِن كَرَامةِ المَجْموعِ، و(أَنَا) تُورثُ في الجَماعةِ المُؤْمِنَةِ الكِبْرَ واللَّمْزَ والسُّخْرِيةَ؛ وكُلُّ ذَلكَ جَاءَ الإِسْلَامُ عَلَى خِلَافِهِ.

والشُّعُورُ بالتَّميُّزِ يَجعلُ الإِنْسَانَ أَسِيرًا لِلْأَنَا المُتَكَبِّرةِ؛ فَتسُوقهُ هَذِهِ (أَنَا) إِلَى الهَاوِيةِ، وَهُوَ ما حدَثَ مع إِبْلِيسَ، لعَنهُ اللهُ؛ كما يَدُلّ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف) ومثلُها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ (سورة ص)

فـ (أَنَا) في هَاتَينِ الآيَتَينِ مَشْحُونةٌ بدَلَالَاتِ الاستِكبَارِ والكُفْرِ بسَبَبِ الشُّعُورِ بالتَّميُّزِ الّذي غَدَا شُبهَةً مُضلِّلَةً للشَيْطَانِ الرَّجيمِ، فقدَ طلَبَ اللهُ منهُ أنْ يَسجُدَ لآدَمَ؛ فَامتنَعَ وعَصَى وتَكبَّر، فَطَلَبَ اللهُ منهُ الدَّاعي الذي دَعاهُ إلى تَركِ السُّجُودِ، فحكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ ذِكرَ ذَلكَ الدَّاعِي، وَهُوَ أَنَّهُ قالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ومَعناهُ: أنَّ إِبْلِيسَ قالَ: إنَّما لمْ أَسجُدْ لآدَمَ لأَنِّي خَيرٌ منهُ، ومَن كَانَ خَيرًا مِنْ غَيرِهِ، فإنَّهُ لا يَجُوزُ أمرُ ذَلكَ الأكمل بالسُّجودِ لِذَلكَ الأَدْوَنِ[2]، فهَذِهِ فَحْوى شُبْهتِهِ، التي بنَاهَا عَلَى (أَنَا) المُتَكَبِّرةِ التي ترَى أَنَّها الأفضلُ والأحْسَنُ؛ لِذَا يَقُولُ الألوسِيُّ: "اللَّعِينُ، أي: الشَيْطَان، أوَّل مَن أسَّسَ بنيانَ التَّكبُّرِ، واخترَعَ القولَ بالحسنِ والقبحِ العقليين"[3].

فلقَدِ اِستولَى عَلَى إِبْلِيسَ الغُرُورُ، وأَحاطَ بهِ العُجبُ إِحَاطَةً تامَّةً؛ مِمَّا جَعَلَهُ يُخالِفُ أَمرَ اللهِ (ﷻ). لَقدْ أَعمَاهُ كِبرُهُ وغُرورُهُ عن كُلِّ شَيءٍ، ومِن ثَمَّ سَوَّلَ لهُ

(٢) يُراجَعُ، محمود الخزندار، ٣٤٧.

(٢) الرَّازِيّ، ٢٨/١٤.

(٣) الأَلُوسِيُّ، ٨٨/٨.

عُجبهُ بِنَفْسِهِ أنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ آدَمَ، وهَذَا يبيِّنُ أنَّ إبْلِيسَ أوَّلُ مَن وَضعَ القيَاسَ الخَاطِئَ وأنَّهُ أوَّلُ مَنْ نَاظَرَ وجَادَلَ، وأنَّه أوَّلُ مَن تَفاخرَ بالعُنْصُريَّةِ ودَعَا إليهَا. ولقد وَصلَ الغُرُورُ بإبْلِيسَ إلَى أنَّهُ لمْ يَعْترِفْ بالخَطَأِ حينَ عصَى أَمرَ رَبِّه، بَل إنَّهُ علَّلَ مَعصيتَهُ، وجادلَ المَولَى (ﷻ) زَاعِمًا أنَّ سَبَبَ عَدَمِ سُجُودِهِ لآدمَ راجعٌ إلَى أَفضليَّةِ العُنْصرِ الذي خَلَقهُ الله منهُ علَى عُنْصرِ آدمَ.. فقَد خلقَ الله آدمَ مِنَ الطِّينِ في حينِ خُلِقَ هُوَ مِنَ النَّارِ، والنَّارُ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ في نَظَرِ إبْلِيسَ، ولا يَخفَى علَى أحَدٍ بداهَةً فَداحَةَ الخَطَأِ الذي أَوقَعَ إبْلِيسُ نفسَهُ فيهِ؛ وذَلِكَ لأنَّ النَّارَ والطِّينَ من الجَمادَاتِ المَخْلُوقَةِ لله (ﷻ)، ومن ثمَّ يَكُونَانِ في دَرجةِ المَخْلُوقيَّةِ سَواءٌ، بل إنَّ الطِّينَ أَفْضَلُ مِنَ النَّارِ.

فَأَنَا التي تدُلُّ علَى ذَاتِ إبْلِيسَ المُتَغَطْرِسَةِ هُنَا قدْ دلَّتْ، أَيْضًا، علَى ضَحَالَةِ تَفكِيرِهِ، وفَسَادِ دَلِيلِهِ؛ فقَدْ أخْطَأَ اللَّعِينُ؛ حَينَ خصَّ الفَضْلَ باعتبارِ المادَّةِ والعُنصرِ، وغابَ عنهُ أُمُورٌ:

الأَوَّلُ: أنَّ اللهَ تَعَالَى هُو الصَّانِعُ؛ كَمَا أَنبأَ عَنْ ذَلِكَ بِقَولِهِ تَعالَى: ﴿ **قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥** ﴾ (سورة ص) أي: بغير واسطةٍ علَى وجهِ الاعتِناءِ بهِ.

الثَّانِي: أنَّ اللهَ تَعَالَى نَفخَ في آدمَ مِن رُوحِهِ؛ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩** ﴾ (الحجر).

الثَّالثُ: أَنَّ غايَةَ خَلَقِ الله لآدَمَ هيَ الخِلَافةُ في الأَرْضِ، كمَا أَنَّ لآدَمَ خواصَّ ليسَتْ لغَيرِهِ، ولِذَلكَ أمرَ اللهُ تَعَالَى المَلَائكَةَ بالسُّجُودِ لَهُ حينَ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ أعلَمُ منهُم بمَا تدُورُ عليه الأُمُورُ[١]. وقَدْ غَابَتْ كُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ عَن إبْلِيسَ اللَّعِينِ، وتحرَّكَتْ فيه نارُ الغيرةِ، وازدَادَ كُفرًا واستكبارًا فقَالَ: ﴿ **أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ**

(١) العمَادِيّ، ٢١٦/٣، البَيْضَاوِيّ، ٨/٣.

﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢) والحقُّ أنَّ الطِّينَ أفضلُ منَ النَّارِ مِن وُجُوهٍ أربعَةٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ مِن جَوهَرِ الطِّينِ الرَّزانَةُ والسُّكونُ والوَقَارُ والأَنَاةُ والحِلمُ والحَيَاءُ والصَّبْرُ، وذَلِكَ هو الدَّاعِي لآدمَ (عليه السلام) بعدَ السَّعادَةِ التي سبَقَتْ لهُ، إلى التَّوبةِ والتَّواضُعِ والتَّضَرُّعِ، فأَوْرثهُ المَغفرةَ والاجتِبَاءَ والهِدَايَةَ، ومِن جَوهْرِ النَّارِ الخِفَّةُ والطَّيشُ والحِدَّةُ والارتِفاعُ والاضْطِرابُ؛ وذَلِكَ هُوَ الدَّاعِي لإِبْلِيسَ، بَعْدَ الشَّقَاوةِ التِي سَبَقَتْ لَهُ، إِلَى الاستِكْبَارِ والإِصْرَارِ، فأَورَثَهُ الهَلَاكَ والعَذَابَ واللَّعْنَةَ والشَّقَاءَ.

الثَّانِي: أنَّ الخَبَرَ ناطِقٌ بأنَّ تُرابَ الجَنَّةِ مِسْكٌ إِذفِرٌ[(١)]، ولمْ ينطِقِ الخَبَرُ بأنَّ في الجَنَّةِ نَارًا، وأنَّ في النَّارِ تُرابًا.

الثَّالِثُ: أنَّ النَّارَ سَبَبُ العَذابِ؛ وَهِيَ عذَابُ اللهِ لأعدائهِ، وليسَ التَّرابُ سَبَبًا للعَذابِ.

الرَّابِعُ: أنَّ الطِّينَ مُستغنٍ عنِ النَّارِ، والنَّارُ مُحتاجةٌ إلى المَكانِ، ومكانُها التُّرابُ[(٢)].

وَقَدْ غَابَتْ هَذِهِ الوُجُوهُ كُلُّها عَنِ (أَنَا) الشَّيْطَانيَّةِ، وسَيطرَتْ عَليهِ شَهْوةُ الكِبْرِ، وحُبُّ التَّمَيُّزِ حتَّى أَودَتْ بِهِ إِلَى الجَحِيمِ؛ مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ (أَنَا) المُتَكَبِّرةَ لا تصدرُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ بِبَوَاطِنِ الأُمُورِ، غَابتْ عنهُ الحقَائقُ، وتاهَ في غياهبِ الكِبْرِ، والغُرورِ.

---

(١) أخرجه البُخاريّ، الجامعُ المسندُ، ٤٧٢/١١، كِتَاب الرقاق، في الحوض، ٦٥٨١، من حَدِيث أنس بن مالك.

(٢) القُرطُبيّ، ١٧١/٧ .

ولِهَذَا ترتبطُ (أَنَا) المُتَكَبِّرةُ بالمرضَى النَّفْسيِّينَ؛ خاصَّةً هَؤُلَاءِ الذينَ يُعانونَ مِن دَاءِ العَظَمَةِ، وَهُوَ داءٌ يَعرفهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ بأَنَّهُ حَالةٌ نَفسيَّةٌ شَاذَّةٌ، تَنجُمُ عَن "تَضَخُّمِ (أَنَا) تضَخُّمًا مَرَضيًّا. ويُؤَكِّدونَ أنَّ تَجلِيَّاتِهِ تتمثَّلُ في انعدامِ قُدرةِ المُصَابِ عَلَى تقديرِ مُقدراتِهِ الحَقِيقيَّةِ تقديرًا مَوضُوعيًّا ودَقيقًا، سواءٌ في ذَلِكَ المقدَّراتُ: الجسميَّةُ، والنَّفْسيَّةُ، والمَعْنويَّةُ، والمَاليَّةُ، والمِهنيَّةُ، والفِكريَّةُ، والاجتِماعِيَّةُ ... إلخ.كَما قَدْ تَصِلُ المُغَالاةُ في تَفْخيمِ الذَّاتِ حَدًّا يَجعَلُ المُصَابَ يَبلغُ حَدَّ الهَذيانِ الفِكْريِّ.

وفي الأَحْوالِ كلِّها، يَنبعُ دَاءُ العَظَمَةِ مِن حُبٍّ مُفرطٍ للذَّاتِ، يُفْضِي إِلَى طُمُوحٍ إِلَى السُّلطَةِ لا يتَناسَبُ وأَهَمِّيَّةَ المُصابِ الحَقيقيَّةَ. وفي الحَالاتِ القُصْوَى، يَظُنُّ المُصابُ يَقينًا أَنَّه مُكلَّفٌ بمَهمَّةٍ "رُوحيَّةٍ"، عَليهِ تَأديتُها؛ ومن هُنا يظهرُ أنَّ داءَ العَظَمَةِ ينشأُ عنِ التَّقديرِ العَالِي المُفرطِ للذَّاتِ وتَضخِيم (أَنَا).

ومِن أَعراضِ هَذَا الدَّاءِ أن يَكُونَ لدَى الشَّخْصِ المَريضِ قناعَةٌ تامَّةٌ بأَنَّهُ عَظِيمٌ، أوْ أعظَمُ مِنَ الآخرينَ؛ مِمَّا يؤدِّي بدَورِهِ إلى أن يَكُونَ مَغرُورًا مُتعجْرِفًا ومُتغَطْرِسًا، يَحتَقرُ الآخرينَ، ولايتقبَّلُ النَّقدَ؛ لِأَنَّهُ مُفرطُ الإعْجابِ بذَاتِهِ وبشَخْصِهِ، ظَانًّا نَفسَهُ فوقَ الآخرينَ، ويرَى أَنَّهُ قدْ وَصَلَ إِلَى دَرَجَةِ الكَمَالِ الذَّاتيِّ.

الخَاتِمَة

في خِتَامِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ حولَ مَفْهُومِ (أَنَا) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ودَلَالَاتُهَا، يُمْكِن للباحثَةِ أنْ تُبرزَ أهمَّ نتائجِ بَحْثِها عَلَى النَّحْو الآتِي:

- جَاءَتْ (أنا) من حَيثُ الرَّسمُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ بإِثْبَاتِ الأَلِفِ، مُستقلَّةً بِنَفْسِها بالرَّسْمِ، في كلِّ آي القُرْآنِ الكَرِيمِ ما عدَا قَوْلهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الكهف).

- رَجَّحَ البَحْثُ القولُ باسميَّةِ (أَنَا) في حَالِ مَجِيئِهَا فَصْلًا؛ وبِهَذَا لا تَخرُجُ (أَنَا) عنِ الاسميَّةِ في كلِّ آي القُرْآنِ الكَرِيمِ.

- يَغْلُبُ عَلَى (أَنَا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ أنْ تَكُونَ في مَوضِعِ رَفعٍ، وتَجيءُ، أَحيَانًا، في مَوضِعِ التَّوكيدِ لضَمِيرِ النَّصْبِ، أو ضَمِيرَ فَصْلٍ، لَا مَحلَّ لهُ مِنَ الإِعْرَاب، عَلَى الرَّاجِحِ مِنْ مَذْهَبِ البَصْرِيِّينَ.

- تَثْبُتُ أَلِفُ (أَنَا) وَقْفًا عندَ جَمِيعِ القُرَّاءِ، وتَسقُطُ وَصلًا عندَ جُمْهُورِهم، ويُثْبِتُها نَافِعٌ؛ جَريًا عَلَى لُغَةِ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى الصَّحِيحِ.

- تكثرُ دَلَالَةُ (أَنَا) في القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، وتتَوزَّعُ في هَذَا الإِطارِ إلى عَظَمَةٍ واجبةٍ لله تَعَالَى، وعزَّةٍ مَحمُودَةٍ في المُؤْمِنينَ، وكِبْرٍ مَمْقُوتٍ مِنَ العُصَاةِ المَارِقينَ.

- تَنْقَسِمُ عَلَاقَةُ (أَنَا) بالذَّاتِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ؛ هِيَ:

١- الذَّاتُ الإِلَهيَّةُ العُلْيَا البَاقِيَةُ، والآيَاتُ التي وَرَدَ فيها ذِكْرُ (أَنَا) المُتَعَلّقةِ بها تَدُلُّ عَلَى العَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، وَوُجُوبِ التَّوْحِيدِ والعِبَادَةِ، وَوُجُوبُ صِفَاتِ الجَمَالِ والكَمَالِ لَهَا، وهَذِهِ الذَّاتُ أَعْلَى الذَوَاتِ ولا يُشبِهُها ذاتٌ، كَمَا قالَ تَعَالَى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ

يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)

٢- الذَّات البَشَرِيَّةُ الفانيةُ، وَتَدُلُّ الآيَاتُ التي وَرَدَ فيها ذِكرُ (**أَنَا**) المُتَعَلِّقةِ بها عَلَى ما يَقتَضِيهِ السِّيَاقُ؛ فَتَختلِفُ ذَاتُ الأَنْبِيَاءِ التي تَتَلَقَّى الوَحيَ، وتَتَّصِفُ بصِفَاتِ الكَمَالِ البَشَرِيِّ، ومكَانُها في أَعْلَى الدَّرَجَاتِ عَن غَيرِها مِنْ ذَوَاتِ البَشَرِ.

٣- الذَّات النُّورانِيَّةُ، هِيَ ذَاتُ المَلَائِكَةِ، وقدْ وردَ فيها قولُ الحــقّ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى): ﴿ **قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾** ﴾ (مريم).

٤- الذَّاتُ النَّارِيَّةُ، هِيَ ذَاتُ الجنِّ أو الذَّاتُ الشَيْطَانيَّةُ، وَتَدُلُّ الآيَــاتُ التــي وردَ فيها ذِكْرُ (أَنَا) المُتَعَلِّقَةِ بهَذِهِ الذَّاتِ الشَّيْطَانيَّةِ عَلَى الكُفْرِ والاستِكبارِ.

- جَاءَتِ (أَنَا) المُتَعَلِّقةُ بذاتِ الأَنْبِيَاءِ، عليهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، مُؤكِّــدةً ذَوَاتَهُــمْ، البَشَرِيَّةَ المُتميّزة بالوَحْيِ والرِّسَالَة، فكَانُوا أوَّلَ المُسْلِمينَ، تَستَقِيمُ ذَوَاتُهــم عَلَــى الطَّاعَةِ، مُتَّصِفَةً بمَا يَجِبُ لِلرُّسُلِ مِنَ التَّبْلِيغِ والأَمَانَةِ والفَطَانَةِ والحِكْمَةِ، وتَتَلَقَّــى ذَوَاتُهُم الوَحْيَ والعِلمَ اللَّدُنِيَّ منَ اللهِ تَعَالَى، وتُؤدِّي وَظِيفةَ التَّبشِيرِ والإِنْذَارِ مــن خِلَالِ مَنهجٍ، يَعتَمِدُ عَلَى التَّأثيرِ والإقناعِ وإقامةِ الحُجَجِ والبَراهينِ، ينفُــونَ عــنْ ذَوَاتِهِم ما يَختصُّ باللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) من الصِّفَاتِ، ويبرؤونَ منَ الشِّرْكِ وأهلِهِ، ويُنكِرُونَ أَفعَالَ الكَافرينَ التي لا يرتَضِيها اللهُ تَعَالَى، وكُلُّ هَذِهِ الإمكاناتِ الذَاتِيَّةِ تَحتَويهــا ذاتُ النَّبيِّ أو الرَّسُولِ، ونَطقَتْ بهَا آيَاتُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ.

- كَلِمَةُ (أَنَا) ضَمِيرٌ من الضَّمَائِرِ، لا شَيءَ في قَوْلِها وتــداوُلِها فــي الكَلَــامِ؛ بِشَرطِ عدمِ إِردَافِها بمَا يُفِيدُ التَّفخِيمَ أو التَّعْظِيمَ للذَّاتِ.

- ذَكرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ النَّفْسَ بِأَنواعِها، وقُوَاها المُختلِفَةِ التي يَدرسُها اليومَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ المُتَخَصِّصونَ لهَذِهِ الدِّراسَاتِ في مَوضُوعاتِها الحَدِيثَــةِ؛ فقــوَّةُ الــدَّوافِعِ الغَريزيَّةِ تُوازِي النَّفْسَ (**الأَمَّارَة بِالسُّوءِ**﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا**

رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ (يوسف) وقُوَّةُ النَّفْسِ الوَاعيَةِ تُوازِي النَّفْسَ المُلهِمَةَ بالفُجُورِ والتَّقْوَى ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (الشَّمْس) وقُوَّةُ الضَّمِيرِ تُوازِي النَّفْسَ اللَّوَّامَــةَ؛ وَهِــيَ النَّفْسُ التي تلُومُ عَلَى الشَّرِّ، وعَلَى عَدَمِ الاستِزادَةِ مِنَ الخَيرِ، وجاءَ ذِكرُها مِــن أجلِ ذَلِكَ مَقْرُونًا بيومِ القيامــةِ: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ (القيامة: ١، ٢)؛ فَيَقظَةُ الوجدَانِ والضَّمِيرِ، وقُــوَّةُ الشُّــعُورِ بالمَسْــؤُوليَّةِ أمــامَ اللهِ (ﷻ) تُؤدِّيَانِ إلَى سُمُوِّ الأَخلَاقِ، ورُقِي السُّلُوكِ، ورَهَافَةِ الضَّمِيرِ، بما يَنطَلِقُ إِلَى الخَيرِ بوازعٍ ذاتيٍّ داخليٍّ، يَصْعبُ خِداعُهُ، أو التَّغريرُ بهِ، ومن هُنــا فإنَّــهُ يُصَابُ بالقَلَقِ والتَّمزُّقِ والصِّراعِ النَّفْسِيِّ، إذَا وَقَعَتْ مِنهُ أَدْنَى مُخالفَةٍ، ويُحــرمُ، عِنْدئذٍ، مِن سَكِينةِ الرِّضَا وطُمأنينَةِ اليَقينِ، وقوَّةِ التَّصديقِ بوعدِ اللهِ والاطمِئْنــانِ إلى وَعدِهِ واليَقينِ في وُجُودِهِ ووَحدَانِيَّتِهِ تُوازِي الــنَّفْسَ المُطْمَئِنَّــةَ ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفجر)، ولا جرَمَ أن ذَلــكَ كلَّــهُ مِــن مُقوِّمَاتِ الاطْمِئْنَانِ المَقصُودِ، فَمَجْمُوعُهُ مُرَادٌ وأَجزاؤُهُ مَقْصودَةٌ.

والله تعالى وليُّ التوفيق

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

- **أحمد زكي صالح**، علم النَّفْس التربوي، النَّهضة المصرية، ط٨، القاهرة، ١٩٦٥م.
- **أسعد رزوق**، موسوعة علم النَّفْس، دار دمشق، الطبعة الأُوْلَى، القاهرة.
- الأصفهانيّ (أبو الفرج عليّ بن الحُسين)، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- **الأعشَى الكبير (ميمون بن قَيس)**، ديوانه، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- **الألوسِيّ**، رُوح المعاني، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط(١)، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- **ابن الأنباريّ (أبو البركات)**، البَيَان في غريب إِعْرَاب القُرْآن، الهيئة المصرية للكِتَاب.
- **البخاريّ**، الجامع المسند الصَّحِيح المختصر من أُمُور رَسُول الله (ﷺ) وسننه وأيامه، مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل البخاري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- **البُستيّ (أبو سليمان أحمد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الخطابيّ)**، غريب الحَدِيث،، تحقيق: عبد الكَرِيم إِبْرَاهِيم العزباويّ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.
- **ابن بشران**، الأمالى، تحقيق: عادل يُوسُف العزازي، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ.

- **البغداديّ (عبد القادر بن عمر)**، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السَّلَام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(٣)، ١٩٨٩م.
- **البغويُّ (أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود الفَرَّاء)**، معالم التَّنْزِيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المَعْرِفَة، بيروت، ط(١)، ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.
- **البيضَاويّ**، تَفْسِير البيضَاويّ، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- **التَّهانويّ (مُحَمَّد عَلَى الفاروقي)**، كشَّاف اصطلاحات الفنُون، تحقيق: لطفى عبد البديع، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م.
- **الثَّعْلِبيّ (أبو إسحاق أحمد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم النِّيسابوريّ)**، الكشف والبَيَان "تَفْسِير الثَّعْلِبِيّ"، تحقيق: الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير السَّاعديّ، دار إحيَاء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط (١)، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- **ابن الجوزيّ**، زاد المسير، المكتب الإِسْلَامي، بيروت.
- **الجوهريّ (أَسْمَاعيل بن حماد)**، الصحاح، تحقيق: إميل بديع يعقوب، ط(١) ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **ابن أبي حاتم**، تَفْسِير القُرْآن العَظِيم، تحقيق: أسعد مُحَمَّد الطيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.
- **الحاكمُ (أَبُو عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن عَبْد اللهِ)**، المستدرك عَلَى الصَّحِيحين، وبذيله التلخيص للحافظ الذهب، دار الكِتَاب العربيّ، بيروت.
- **حسين الحاج حسن**، أدب العرب في صَدر الإِسْلَام، بيروت، لبنان، د، ت.
- **ابنُ حَجَرٍ الهيتميُّ (أحمد بن مُحَمَّد بن عليّ)**، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ط (١)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

- **ابن حجر**، المطالب العَالِيَة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار المَعْرِفَة، بيروت.

- **حميد بن ثور الهلالي**، ديوانه، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط (٢)، ١٩٩٥م.

- **أَبُو حَيَّان الأَنْدَلُسِيّ**، البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- **الخازِن (علاء الدّين عَلَى بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم البغداديّ)**، تَفْسِير الخازن المسمى "لُباب التأويل فى معانى التَّنْزِيل"، ط دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- **خالد الأزهريّ**، شرح التَّصريح: التَّصريح بمضمون التَّوضيح، عيسى الحلبي، القاهرة، (د.ت).

- **ابن خالويه**، الحُجّة فى القِرَاءَات السَّبع، دار الشُّروق، بيروت، (د.ت).

- **الخرائطيّ**، اعتلال القُلُوب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- **ابن أبي الدُّنْيَا**، محاسبة النَّفْس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- **الرَّازِيّ (مُحَمَّد فخر الدين بن ضياء الدّين عمر)**، تَفْسِير الفخر المشتهر بـ"التَّفْسِير الكبير ومفاتيح الغيب"، للإمام المُشْتهَر بخطيبِ الرّيّ، طبعة دار الفكر، بيروت، ط(٣)، (د.ت).

- **الرَّاغِب الأَصْفَهَانِيّ**، المفردات فى غريب القُرآن، تحقيق: مُحَمَّد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، ط(١)، ١٩٨١م.

- **الزَّمخشريّ (محمود بن عمر)**، الكشاف عن حقائق غوامض التَّنْزِيل وعيون الأقاويل في وُجُوه التأويل، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي مُحَمَّد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض ط(١)، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- **الزَّمخشريُّ (أبُو القاسم محمود بن عمر)**، المفصل في صنعة الإِعْرَاب، تحقيق: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٩٩٣م.

- **ابن أبي زمنين (أبو عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن عَبْد اللهِ)**، تَفْسِير القُرْآن العَزِيز، تحقيق: أبو عَبْد اللهِ حسين بن عكاشة، مُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحَدِيثة، مصر، القاهرة، الطبعة الأُوْلَى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- **الزَّبيديُّ (محب الدين السيد مُحَمَّد مرتضى)**، تاج العروس من جَوَاهِر القاموس "شرح القاموس"، تحقيق: مجموعة من المحققين، حكومة الكويت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

- **ابن زَنْجَلَةَ**، حُجَّة القِرَاءَات، أبي زرعة عبد الرحمن بن مُحَمَّد، مؤسسة الرِّسَالَة، **بيروت.**

- **السَّعديُّ (عبد الرحمن بن ناصر)**، بهجة قُلُوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، وزارة الشئون الإِسْلَامية والأوقاف والدَّعْوَة، السعودية، ط الرَّابِعَة، ١٤٢٣هـ.

- **أبو السعود (مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى العماديّ)**، تَفْسِير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القُرْآن الكَرِيم، نشر مطبعة عبد الرحمن مُحَمَّد، القاهرة.

- **سعيد حوى**، الأساس في التّفْسِير،، دار السَّلَام، القاهرة، ط الأُوْلَى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- **السُّيوطِيّ**، المزهر في علوم العَرَبِيَّة وأنواعها، تحقيق: مُحَمَّد أحمد جاد المولى، عيسى الحلبي، القاهرة.

- **السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)**، الدر المنثور في التّفْسِير بالمأثور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- **السُّيوطيّ**، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط(١)، ١٣٢٧هـ، طبعة أخرى، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية.
- **الشنقيطيّ**، أضواء البَيَان في أَيْضَاح القُرْآن بالقُرْآن، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- **شهاب الدّين الخفاجيّ (أحمد بن مُحَمَّد بن عمر)**، حاشية الشهاب، ضبطه وخرج آيَاته وأحاديثه: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المَعَارِف القاهرة، د. ت.
- **الشَّوكانِيّ**، فتح القدير، دار اِبْن كَثِيرٍ، بيروت ط(١)، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- **الطَّبرانيّ (سليمان بن أحمد)**، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- **عائشة عبد الرحمن**، الإِعْجَاز البَيَاني للقُرْآن،، طبعة دار المَعَارِف القاهرة.
- **ابن عادل**، اللباب في علوم الكِتَاب، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- **عَبَّاس حسن**، النَّحْو الوافي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **عَبْد اللهِ بن أحمد**، زوائد الزهد مع الزهد، تحقيق: مُحَمَّد جَلَال شرف، دار النهضة العَرَبِيَّة، بيروت، ط(١) (١٤٠١هـ).
- **أبُو عُبيدَةَ (مَعمَر بن المُثَنَّى)**، مجاز القُرْآن، مؤسسة الرِّسَالَة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- **اِبْن عَطِيَّةَ الأَنْدَلُسِيّ**، المُحَرَّر الوَجِيز، دار الكتب العلمية.

- **العُكبريّ، التبيَان في إِعْرَاب القُرْآن**، تحقيق: فتحي أحمد، دار الفكر، دمشق، ط (١)، ١٤٠٢هـ.
- **العينيُّ (محمود بن أحمد)**، المقاصد النَّحْوية في شرح شَـوَاهِد الأَلفيـة، دار صادر، بيروت.
- **فاخر عاقل**، معجم العلوم النَّفْسية، أنكليزي/ عربي، الطبعة الثَّالِثَة، بيـروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- **الفَرَّاء**، معاني القُرْآن تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، ط. دار الكتـب والوثـائق القومية بالقاهرة ط (٣)، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.
- **الفيروز آباديّ**، القاموس المحيط، عيسى البـابي الحلبـي، القـاهرة، ط(٢) ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- **القُرْطُبِيّ (أبو عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن أحمد الأنصاريّ)**، الجامع لأحكام القُـرْآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- **الكاشاني**، الحقائق في محاسن الأخلاق، دار البَلَاغَة، بيروت.
- **اِبْن كَثِير**، تَفْسِير القُرْآن العَظِيم، تحقيق: مصطفى السـيد مُحَمَّـد وآخـرين، طبعة مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القـاهرة، الطبعـة الأُولَـى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- **الكفويُّ (أبُو البقاء)**، الكُلِّيَّات، دار الفكر، دمشق.
- **المالقيّ (أحمد بن عبد النُّور)**، رصف المباني في شرح حُـرُوف المعـاني، تحقيق أحمد مُحَمَّد الخراط، دمشق، ١٩٧٥م.
- **ابنُ مُجَاهِد**، السبعة في القِرَاءَات، دار المَعَارِف، ط(٢)، القاهرة.
- **مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة بالقاهرة**، المعجم الوسـيط، إخـراج: دار المَعَـارِف، القاهرة، مصر، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

- **مُحَمَّد علي عبد الواحد عوض**، المعجم الشِّعْري عند شعراء الستينيات، القاهرة، د، ت.

- **محمود الخزندار**، هَذِهِ أخلاقنا حين نكون مُؤْمِنين حقًا، دار الجيل، بيروت، لبنان الطبعة الثَّانِيَة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- **المرزوقيّ**، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٧هـ.

- **المروزيُّ (مُحَمَّد بن نصر)**، قيام اللَّيْل وقيام رمضان وكِتَاب الوتر، اختصرهُ: أحمد بن عَلَى المقريزيّ، ط عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثَّانِيَة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

- **مُسْلِم (أبو الحسين بن الحجاج القشيريّ)**، صحيح مُسْلِم بشرح النوويّ، تحقيق: عصام الصبابطي وآخرين، دار الحَدِيث، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- **مصطفى أبو السعود**، التقدير الذَّاتي للطفل، دار الملتقى، سوريا، ٢٠٠٥م.

- **ابن منظور (أبو الفضل جَمَال الدين مُحَمَّد بن مكرم)**، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

- **النَّحَّاس (أبو جعفر أحمد بن أَسْمَاعيل)**، إِعْرَاب القُرْآن،، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، ط(٣)، ١٩٨٨م.

- **النَّسفيّ**، تَفْسِير النسفى، عيسى الحلبى، القاهرة.

- **ابن هشام الأنصاريُّ (جَمَال الدين بن هشام)**، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

- **ابن هشام (عَبْد اللهِ جَمَال الدين بن يُوسُف)**، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ط (١١)، (١٩٦٣م)، المكتبة التجارية الكُبْرَى.

- **ابن هشام**، مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة، صيدا، لبنان، ١٩٨٧م.
- **أبو هلال العسكريّ (الحسن بن عَبْد اللهِ بن سهل)**، جمهرة الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- **وهبة الزحيلي**، التّفْسِير المنير في العقيدة والشريعة، دار الفكر دمشق، سوريا بيروت، لبنان، الطبعة الأُوْلَى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن يعيش (موفق بن علي)، شرح المفصل، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	١٧٠٩
الملخص باللغة الإنجليزية	١٧١٠
المقدمة	١٧١١
١- التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ وَالقِرَاءَاتِيُّ والبَلَاغِيُّ لِـــ(أَنَا) فِـــي القُـــرْآنِ الكَرِيمِ	١٧١٤
٢- عَلَاقَةُ (أَنَا) بالذَّاتِ	١٧٢١
٣- عَلَاقَةُ (أَنَا) بالنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ	١٧٣٧
4- دَلَالَةُ ﴿أَنَا﴾ في القُرْآنِ الكَرِيمِ	١٧٥١
الخاتمة	١٧٧٥
المصادر والمراجع	١٧٧٨
فهرس الموضوعات	١٧٨٦